تأدَّب

قبل أن تتعلَّم!

فاطمة سامي

﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ **فَٱتَّبِعْنِيٓ** أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾

عنوان الكتاب : تـــأدَّب قبل أن تتعلَّم !

التـــأليـــــف : فاطمة سامي

مراجعة لغوية : عمرو سالم سواح

الإخراج الفنيّ : عمرو سالم سواح

تصميم الغلاف : هبة محمد

الطبعة الأولى : ٢٠١٨

رقم الإيداع : ٢٣٥٦٢ /٢٠١٨

الترقيم الدوليّ : ٩-٥٩٤١-٩٠-٩٧٧-٩٧٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى مُعلمتي الغالية: أ. جيهان شوقي "أم مريم" حفظها الله

إلى كل مُعلمة وأُخت من أخوات معهد "عليّ بن أبي طالب"،

ومعهد "عُمر بن الخطاب"

إلى مسجد الإخوة بالمنصورة أبناء د. حازم شومان "حفظه

الله"

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفُسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فلقد قمت بمراجعة كتاب "**تأدب قبل أن تتعلم**" لابنتي: فاطمة سامي وأسأل الله أن يكون زخرًا للإسلام والمسلمين، وأن يكون علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا، ويرزقها الإخلاص ويحفظ قلبها.

فبعد مراجعتي له وجدته مادة علمية تربوية ممتازة في الوقت الذي كثر فيه العلم وقلَّ فيه التخلق والتزكية به.

فأسال الله أن يكون هذا الكتاب ميلادًا جديدًا لطالب علم يتحلى بالآداب والفضائل التي تؤهله أن يسلك من سبقونا من أهل العلم.

فكان الشافعي يقول: "**كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقوعها**".

وكان الربيع يقول: "**والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له**".

الحمد لله أن وفق ابنتي فاطمة وهداها لمثل هذا العمل الرائع، وفقها الله وسدد خطاها هي وجميع بناتي "بنات عليّ وعُمر".

المُعلمة

جيهان شوقي "أم مريم"

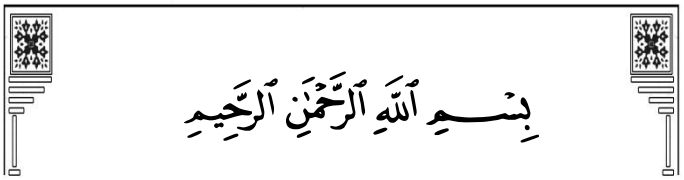

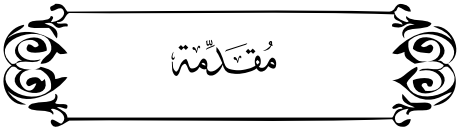

إن الحمدَ لله نَحْمَدُه ونَسْتعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفُسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِل له، ومن يُضلِل فلن تجد له وليًّا مُرشدا . .

وأُصلي وأُسلم على المبعُوث رحمة للعالمين أمَّا بعد . .

فالحَمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

ففي هذا المجموع من كتابي مُهذب أخلاق العُلماء للإمام: أبي بكر محمد بنِ الحُسين الآجُري وتعليق: طارق بن عبد الواحد بن عليَّ

وكتاب حلية طالب العلم للكاتب الدكتور: بكر أبو زيد وشرح العلامة: محمد ابن صالح بن عثيمين "رحمه الله"

وكتاب مُنطلقات طالب العلم للشيخ: محمد حسين يعقوب.

تُقدم إليكم الكاتبة: فاطمة سامي

كتاب "**تَأَدَّب قبل أن تتعلَّم**" من صفات طالب العلم وفضائل طلبه وآدابه.

فضل العلم

العلم هو ما قام عليه الدليل ويقصد به علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة رضي الله عنهم.

فالعلم قال "الله"، وقال "رسول الله" وقول من ميزه الله بالفطنة والفصاحة فعرف كيف يستعمل تلك النعمة، وقولهم حجة عليهم لا على الدين.

والعِلم: بكسر العين في اللُّغة من الفعل الثُّلاثي عَلِمَ أي عرف ما كان مجهولًا بالنِّسبة إليه في حدود القُدرات البشرية؛ فالعليم اسمٌ من أسماء الله الحُسنى وهو الذي يعلم ويعرف كُلَّ شيءٍ سرًّا وعلانيةً.

والعِلم في الاصطلاح هو مجموعة المعارف والخبرات والاستنتاجات التي يتوصّل إليها الإنسان، ويُتقنها في مجالٍ ما من مجالات المعرفة؛ فهناك عِلم الطّبيعة، وعِلم الدِّين، وعِلم الطِّب والهندسة، وغيرها.

وقد جاء في الأثر أنّ الأنبياء عليهم السلام لا يورّثون ذهبًا ولا فضّةً ولا منصبًا وإنّما يورّثون العِلم لمن بعدهم.

الإسلام دِين العِلم والتّعليم

فأوّل آيةٍ حملها جبريل عليه السلام للنّبي ﷺ: "اقرأ" ثُمّ تلتها قوله تعالى﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ القلم: ١ فهاتان الآيتان عظّمتا شأن القراءة والكتابة، وأقسم الله سبحانه بالقلم وهو أداة التّدوين والكتابة والحفظ، وبالقراءة والكتابة تُكتسب العلوم المختلفة وتزدهر الحضارات وينتشر العِلم بين النّاس ويُنزع الجهل من أفواه العوام..

فضائله في القرآن كثيرة:

منها قوله ﷻ: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١]

وقوله ﷻ: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الزمر: ٩

قل - أيها الرسول -: هل يستوي الذين يعلمون ما أوجب الله عليهم بسبب معرفتهم بالله وأولئك الذين لا يعلمون شيئًا من هذا؟! إنما يعرف الفرق بين هذين الفريقين أصحاب العقول السليمة.

وقد زاد شوقنا إلى العلم بحديث رسول الله ﷺ: "من يُرد الله به خيرًا يُفقهه فى الدين". (أخرجه الترمذي وصححه الألباني)

أخي المُتفقه في الدين ❤

فالعلم في شريعتنا له مقام جليّ قد ميز الله به العابد عن العالِم كما بين السماءِ والأرض.

فعن قيس بن كثير ﷺ قال: [قَدِمَ رَجُلٌ من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال ما أَقْدَمَكَ يَا أخِي؟

فقال: حديثٌ بلغني أنَّك تحدّثُه عن رسول الله.

قال أبو الدرداء: أما جئتَ لحاجة؟! قال : لا

قال: أما قدِمْتَ لتجارةٍ؟! قال : لا

قال: ما جئتُ إلا في طلب هذا الحديث

قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتغي فِيهِ علْمًا سَلَكَ الله به طَرِيقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لِطالبِ العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضْلُ العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا دِرْهَمًا، إنما ورَّثُوا العِلْمَ، فمن أخذ به أخذ بِحظ وَافِر".

(أخرجه الترمذي_صححه الألباني)

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوي المؤدي إلى حصول العلم مثلُ حفظهِ ومدارسته.

وقوله: "سهل الله له به طريقًا إلى الجنة " قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه وسلك طريقه، وييسره عليه، فإن العلم طريقٌ يوصل إلى الجنة، كما قال بعض السلف: " هل من طالب علمٍ فيعان عليه"، وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده.

فالعالِم نور وبنوره يرفع الجهل والشبه والشكوك، ولهذا سمّى الله كتابه نورًا.

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ".

(رواه أحمد_والبخاري_ومسلم_وغيرهم)

وسُئل عبادة بن الصامت عن هذا الحديث فقال: "لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع ".

• وإنما قال عبادة هذا لأن العلم قسمان: أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان، هو العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله المقتضي لخشيته، ومهابته، وإجلاله، ومحبته، ورجائه، والتوكل عليه، فهذا هو العلم النافع.

• كما قال ابن مسعود: "إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسَخ فيه نفع".

• وقال الحسن: "العلم علمان: علم اللسان فذاك حجة على ابن آدم ، كما في الحديث " القرآن حجة لك أو عليك"، وعلم في القلب فذاك

العلم النافع، فأول ما يرفع من العلم العلمُ النافع، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه، لا حملته ولا غيرهم، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حملته وتقوم الساعة على شرار الخلق".

ومن الأدلة على فضل العلم وأهله كذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في دين، ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعمادُ الدين الفقهُ ".

(رواه الطبراني_والبيهقي)

" لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ".

(متفق عليه)

وأيضًا: "إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلمًا فهو يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًّا فهذا بأحسن المنازل عند الله، ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يَخبِط في ماله لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقًّا فهذا بأسوأ المنازل عند الله، ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول:

"لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء".
(أخرجه الترمذي_صححه الألباني)

قال الإمام أحمد: "الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس".

وقال سفيان بن عيينة: أرفع الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء.

ما الفَضْلُ إلاَّ لأَهْلِ العِلْم أنَّهُمُ عَلَى الهُدَى لِمَن اسْتَهْدى أَدلاَء
وقَدْرَ كُلِّ امْرِئٍ ما كَانَ يُحْسِنُه والجَاهِلُونَ لأَهْلَ العلم أَعدَاءُ
فَفُزْ بِعلم تَعش حيًّا به أَبدًا الناسُ مَوْتَى وأَهْلُ العِلْم أَحْيَاءُ

فإن الله ﷻ، اختَصَّ مِن خلقه مَن أحب، فهداهم للإيمان، ثم اختَص من سائر المؤمنين مَن أحب، فتفضَّل عليهم، فعلَّمهم الكتاب والحكمة، وفقههم في الدين، وعلمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين وذلك في كل زمانٍ، فرفعهم بالعلم، وزينهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والطيب من الخبيث، والنافع من الضار، بهم تحيا قلوبُ الحق فهم قرة العيون.

وقد قال كعب الأحبار رحمه الله: "عليكم بالعلم قبل أن يذهب، فإن ذهابَ العلم موتُ أهله، موتُ العالم نجمٌ طُمس، موت العالِم كسرٌ لا يُجبر! وفجوة لا تُسَدُّ، بأبي وأمي العلماء؛ قِبْلتي إذا لَقيتُهم، وضالَّتي إذا لم ألقهم، لا خير في الناس إلا بهم".

تقسيم الناس بالدنيا

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ لكُميلٍ:

"احفظ ما أقول لك: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ، وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دِيْنٌ يُدَانُ بِهَا، الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَصَنِيعَةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ. مَاتَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ".

ولقد ميز في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية طالب العلم ترغيبًا وحُبًّا وشوقًا إلي العلم والتحلي بآدابه:-

(١) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]

فأهلُ العلمِ هم الثِّقات العُدُولُ الذين استشهدَ الله بهم على أعظم مشهودٍ، وهو توحِيدُه ﷻ، وهذا هو العلمُ الحقيقيُّ، العلمُ بالله تعالى وأسمائه وصفاتِهِ، وموجب ذلك ومقتضاه من الإيمان برسُلِه وكتُبِه،

والإيمان بالغيبِ حتى كأنَّه مُشَاهَدٌ محسوس..

فهذه المَزِيَّةُ الكُبرى للعلم وأهله، أنَّه يدلُّ على صراطِ الله المُستقيمِ، والصفات العلا ..

فهذا هو العلمُ وهذه هي ثمرتُه، رَزَقَنَا الله وإياكم الشجرةَ المثمرةَ، إنه جوادٌ كريم.

(٢) وقد كتب الإمام البُخاري بابًا فقال: "بابُ العلمِ قبلَ القولِ والعملِ" لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩]

سئلَ سُفيانُ بنُ عُيينةَ عن فضل العلم فقال: ألم تسمعْ قولهُ حينَ بدأَ بِه ؟! ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ فأمرَ بالعملِ بعد العلم..

فالعلم مُقدم على القول والعمل، فلا عمل دون علم، وأول ما ينبغي تعلُّمُه: "التوحيد" و"علم السلوك والتربية " فيعرفُ الله تعالى ويُصَحّحُ عقيدتَهُ، ويعرف نفسه وكيف يُهذّبُها، وأنت تلحظُ هذا الارتباط بينَ العلمِ بالتوحيد

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وبين التربية والتزكية التي من ثمارِهَا المُراقبة ودوام التوبة ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾

(٣) والعلم نور يبصر به المرءُ حقائق الأمور، وليس البصر بصر العين، ولكن بصرُ القلوب ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]

ولذلك جعل الله الناس على قسمين: إما عالم أو أعمى

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩]

ولذلك عبر الله ﷻ بفعل "رأى" دلالةً على العلم في قوله تعالى :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦]

فلم يقل "ويعلمُ" وهذا -والله أعلم- إشارة إلى العلم وأثره في القلوب، التي صارت به تُبصر وترى الحق، ولا يلتبس عليها الباطل وهذا واضح في حديث رسول الله ﷺ:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: «يَا أَبَا مَالِكٍ مَا «أَسْوَدُ مُرْبَادًّا»؟» قَالَ: «شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ». قَالَ: قُلْتُ: «فَمَا «الْكُوزُ مُجَخِّيًا»؟» قَالَ: «مَنْكُوسًا».

(٤) العلم يُورث الخشية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨]

١. وقد مدح الله أهلَ العلم وأثنى عليهم، فجعل كتابه آياتٍ بيناتٍ في صدورهم، به تنشرح وتفرح وتسعد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

٢. وقد أمرنا الله تعالى بالاستزادةِ من العلم، وكفى بها من منقبةٍ عظيمة للعلم..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه: ١١٤)

قال القرطبي رحمه الله: "فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يسألهُ المزيد منه كما أمرَ أن يستزيده من العلم.

٣. العالم هو الوارث عن الأنبياء هذا العلم، الذي أُمر الناس بسؤالِهم عند عدم العلم، قال الله تعالى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٤٣

٤. وأخبر الله عن رفْعَةِ درجةِ أهل والإيمان خاصة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]

٥. والعلم أفضل من الجهاد؛ إذ من الجهاد جهاد بالحُجَّة والبيان، وهذا جهاد الأئمة من ورثة الأنبياء، وهو أعظم منفعة من الجهاد باليد واللسان، لشدة مؤنَتِه، وكثرة العدو فيه..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥١:٥٢]

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [من جاء مسجدي هذا لم يأتِه إلا لخيرٍ يتعلمه أو يُعلمه، فهو في منزلة المُجاهد في سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاعِ غيره].

(أخرجه بن ماجه وصححه الألباني)

٦. ولم يجعل الله التحاسُدَ إلا في أمرين: بذل المال، وبذل العلم، وخذا لشرف الصنيعين، وحث الناس على التنافس في وجوه الخير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها".

(أخرجه الترمذي وصححه الألباني)

٧. ولا ينقطعُ علم العالم بموته، بخلاف غيره ممكن يعيشُ ويموتُ، وكأنه من سقط المتاع، أما أهل العلم الربانيون الذين يُنتفغ بعلمهم من بعدهم، فهؤلاء يُضاعفُ لهم في الجزاء والأجر شريطة الإخلاص..

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»

٨. كل ما في الدنيا هالك وإلى زوال، تتنزل عليه اللعنات، والمرحوم من ذلك صنفان من الناس: أهل العلم وطلبته، والعابدون الذاكرون الله كثيرا..

عن أبي هريرة ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال: "ألا إن الدُّنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم ".

(أخرجه الترمذي وصححه الألباني)

٩. ورد عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: "ومعاذ بن جبل يقول في طلب العلم:

" تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَالأُنْسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ، وَالْقَرِيبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً، وَهُدَاةً يُهْتَدَى بِهِمْ، وَأَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَتُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، حَتَّى حِيتَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامِّهِ، وَسِبَاعِ الْبَرِّ وَأَنْعَامِهِ، وَالسَّمَاءِ وَنُجُومِهَا، لأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى، وَنُورُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ، وَمَجَالِسَ الْمُلُوكِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالْفِكْرَةُ فِيهِ تُعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يُطَاعُ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ يُعْمَلُ وَيُحْفَدُ، وَبِهِ يُتَوَرَّعُ وَيُؤْجَرُ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ، قَالَ : تَابِعُهُ ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ".

١٠. وبالعلم يعظم أجر المؤمن، ويصحح نيته، فيحسن عملُه، وإذا كان الناس لا يشغفون بالمال عن العلم، فإن فضل العلم على المال أعظم، وقد فضل لنا الشرع في هذه القضية، فقد قسم رسول الله على أصناف

أربعة، جعل الناجحين منهم صنفين، وهما من تلبس بالعلم.

فعن أبي كبشة الأنماري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ثلاثة أقسم عليهن، وأُحدثكم حديثا فاحفظوه "

قال: "ما نقص مال عبدٍ من صدقة، ولا ظُلِمَ عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر"

أو كلمة نحوها " وأُحدثُكُم حديثًا فاحفظوه" قال: {إنما الدنيا لأربعة نفر:

- عَبْدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا؛ فهذا بأفضل المنازل.
- وعَبْدٌ رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان؛ فهو بنيته؛ فأجرهما سواء.
- وعَبْدٌ رزقه الله مالًا، ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأخبث المنازل.
- وعَبْدٌ لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلان، فهو بنيته؛ فوزرهما سواء}

(أخرجه الترمذي وصححه الألباني)

والشاهد هنا:

أن النبي ﷺ جعل العلم الحقيقي هو العلم الذي يُبصر المرء بحقائق الأمور، فصاحب المال إذا لم يتحلَّ بالعلم فإنه سيسيءُ التصرف فيه،

فتجده ينفقه على شهوات نفسه، ولا يعرف شكر هذه النعمة، ولذلك استحق أن يكون بأخبث المنازل، والعياذُ بالله.

وجعل العالم يعرف قدر المال الحقيقي، فيما يُنفق؟ فبعلمه نوى نية صالحة فصار بأعلى المنازل، وأن لم يُنفِق.

١١. ومن رزقه الله فقهًا في الدين؛ فذاك الموفق على الحقيقة؛ فالفقه في الدين من أعظم المِنَن، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "من يُرد الله به خيرًا يُفقهْهُ في الدين".

(أخرجه الترمذي وصححه الألباني)

١٢. والعلم مُقدم على العبادة، فإن فضلًا في علم خيرٌ من فضل في عبادة، ومن سار في درب العلم سهل عليه طريق الجنة.

أخرج البيهقي في سننه عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : "إنَّ الله أوحى إليَّ: أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة ومن سلبت كريمتيه أثبته عليهما الجنة وفضل في علم خير من فضل في عبادة و ملاك الدين الورع ".

(أخرجه البيهقي وصححه الألباني)

١٣. وطلبةُ العلم هم وصيةُ رسول الله:

عن سعيد الخدري قال :قال رسول الله ﷺ : "سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصية رسول الله وأقنوهم".

(أخرجه بن ماجه و حسنه الألباني)

١٤. وأهل العلم الذين يبلغون الناس شرع الله تعالى هم أنضر الناس وجُوها، وأشرفهم مقامًا، بدُعاءِ رسول الله لهم

روي عن زيد بن ثابت في الترمزي قال: قال رسول ﷺ : "نضَّرَ اللهُ أمرًا سمِعَ مِنَّا حديثًا فحفِظَهُ حتى يُبَلِّغَه غيرَهُ، فرُبَّ حامِلِ فقْهٍ إلى من هو أفقَهُ منه، وربَّ حامِلِ فقهٍ ليس بفقيهٍ".

(أخرجه بن ماجه و صححه الألباني)

١٥. ومن شرف العلم وفضله أن الله امتن على أنبيائه ورسله بما آتاهم من العلم، دلالة على عظم المنة..

- فذكر نعمته على نبينا محمد ﷺ فقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]

- ووصف خليله إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- بأنه كان أُمَّة، أي جامعًا لصفات الكمال من العلم والعمل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ﴾ النحل: ١٢٠ - ١٢١

- وقال الله ﷻ عن نبيه يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف: ٢٢

• وقال في كليمهِ موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤]

١٦. ومن فضل العلم أن صاحبه معتبر قوله في الشريعة، فهو الناطق بالحق في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد؛ لأنه أبصر الناس بالخير والشر..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ القصص: ٨٠

فالعلماء هم أبصر الخلق بمداخل الشر، ولذلك كان لزامًا عليهم بيان ذلك للناس.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة: ٦٣]

(٢١) ومن فضل العلم: أنه يحتاج إليه في كل وقت وحين..

قال الإمام أحمد رحمه الله: «الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه في كل وقت ".

فالعلم هو نور الهداية وبدونه لا يعلم الكثير كيفية أداء الفرائض، ولا اجتناب المحارم، ولا يعبدون الله على بصيرة، فلولا العلم لفسد عمل الإنسان، والعلماء على الأرض كالنجوم يهتدى بهم في الظلمات وترجمُ الشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس فيه..

آداب طالب العِلم

أخي .. اعلم أعزك الله أن تعلُّم الآداب وحُسن السَّمت مطلب شرعي قلَّ في الناس من يلتفت إليه، بل البلايا العظام لم تتوال علينا إلا يوم هجر الناس السمت الحسن، وأقبلوا على العلم ولم يُزينوه بحِلْيته الواجبة، فظهرت الأقوال الشاذة، وكثرت الصراعات والخلافات، فلم نجنِ للعلم ثمرة، ونَزُرَ في الناس أهل العلم والفضل..

تأدَّب قبل أن تَتَعَلَّم؛ فإنك لن تنال من العلم طرفًا إذا لم تنل من الأدب أطرافه..

واعلم أن تهذيب النفس، وإصلاح خَلَلِهَا ليس بالأمر اليسير، إلا من وفقه الله تعالى؛ فأصلِح ما بينك وبين الله يستقمْ حالك.

وهذه بعض الآداب عليك أن تسعى لتتحلَّى بها، فهي زادك الحقيقي في طريق الطَّلَب .

أولًا : طهارة القلب من الأدناس؛ ليصلُح لقبول العلم واستثماره:

ففي "الصحيحين" عن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجَسدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كُلُه، ألا وهي القلب".

قيل : تَطْييبُ القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة.

وعن ابن عمر ﷺ قال: وعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام أن يأتيه، فراثَ عليهِ حتى اشتد على رسول الله ﷺ فخرج فلقيه جبريل، فشكا إليه فقال : "إنَّا لا نَدْخُلُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صورة".

فإذا كانت الملائكةُ لا يدخُلُون بيتًا فيهِ كلبٌ، فكيف ينزِلُون قلبًا مليئًا بالأنجاس والخَبَائِث ومذمُوم الصفات مثل: الغضب، الشهوة، والحقد، والحسد، والكبر، والعُجْبِ، ونحوها؟!

وهذه الصفات كالكلاب النابحات في الباطن فكيف يُمكِن أن تتفق هذه مع ملائكة الرحمة؟!

قال بن جماعة: القلب المُظلم المشحون بالذنوب لا يستطيع استقبال الملائكة، ولا يبقى فيه مكانٌ للعلم الذي هو نور يقذفه الله في قلوب من أراد..

شَكَوتُ إلى وكيع سُوءَ حِفْظي .. فأرشدنِي إلى تَرْكِ المعاصي
وأَخْبَرَنِي بأَنَّ العِلْمَ نُورٌ.. وَنُورُ اللهِ لا يُهدى لعاصِ

فإن العلم كما ذكرنا: هو صلاة السر، وعبادة القلب، وقُرْبَةُ الباطن، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته من خبث الصفات وحدَث مساوئ الأخلاق ورديئها.

أوصاف طُلاب العلم الذين نفعهم الله بالعلم في الدنيا والآخرة

حق الطالب صفات وأحوال شتى، ومقامات لا بد له من استعمالها، فهو مستعمل في كل حال ما يجب عليه:

- فله صفة في طلبه للعلم: وكيف يطلبه؟
- وله صفة في كثرة العلم_إذا كثُر عنده - : ما الذي يجب عليه فيه فيلزمه نفسه.
- وله صفة إذا جالس العلماء: كيف يجالسهم؟
- وله صفة إذا تعلم من العلماء: كيف يتعلم؟
- وله صفة : كيف يُعلِّمُ غيره؟
- وله صفة إذا ناظر في العلم: كيف يناظر؟
- وله صفة إذا أفتى الناس: كيف يفتي؟
- وله صفة: كيف يجالس الأمراء إذا ابتُلي بمجالستهم؟ ومن يستحق أن يجالسه، ومن لا يستحق؟
- وله صفة عند معاشرته لسائر الناس ممن لا علم معه.
- وله صفة: كيف يعبد الله ﷻ فيما بينه وبين ربه؟

قد أعد لكل حق يلزمه ما يقويه على القيام به..

آداب طالب العلم في نفسه

فمن صفته لإرادته في طلب العلم: أنه يعلم أن الله ﷻ فرض عليه عبادته، والعبادة لا تكون إلا بعلم، وعَلِمَ أن العلم فريضةٌ عليه، وعَلِمَ أن المؤمن لا يحسُنُ به الجهل، فطَلَبَ العلم لينفي عن نفسه الجهل، وليعبُد الله كما أمره -ليس كما تهوى نفسه- فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم، وكل منا يعلم أن:

(١)العلم عبادة:

أصل الأصول في هذه الحلية بل ولكل أمرٍ مطلوب علمك بأن العلم عبادة، وقال بعض العلماء: "العلم صلاة السر وعبادة القلب".

العلم عبادة لا شك فيه، بل من أجل العبادات وأفضلها حتى إن الله تعالى جعله في كتابه قسيمًا للجهاد في سبيل الله -الجهاد المسلح- فقال ﷻ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

ليتفقهوا: يعني بذلك الطائفة القاعدة ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

و قال النبي ﷺ: "من يُرِد الله به خيرًا يُفقه في الدين".

(أخرجه البخاري ومسلم)

فإذا رزقك الله الفقه في دينك، والفقه هُنا يعني به العلم بالشرع؛ فيدخل فيه علم العقائد والتوحيد وغيره..

فإذا رأيت أن الله منَّ عليك بهذا فاستبشر خيرًا؛ لأن الله تعالى أراد بك خيرًا.

وقال الإمام أحمد: "العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته، قالوا: وكيف تصح النية يا أبا عبد الله؟! قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره".

وعليه فإن شرط العبادة:

(١) إخلاص النية لله ﷻ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]

فإن فقدَ العِلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحطِّ المخالفات.

ولا شيء يحطم العلم مثل الرياء، رياء شرك، أو رياء إخلاص كقول فعلت وعملت وحفظت..

كيف يكون الإخلاص في طلب العلم؟!

(١) أن تنوي بذلك امتثال أمر الله؛ لأن الله تعالى أمر بذلك فقال:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩]

يحث الله ﷻ على العلم، والحث على الشيء يستلزم محبته والرضا به والأمر به.

(٢) أن تنوي بذلك حفظ شريعة الله؛ لأن حفظ شريعة الله يكون بالتعليم، ويكون بالحفظ في الصدور ويكون كذلك بالكتابة..

(٣) أن تنوي بذلك حماية الشريعة والدفاع عنها؛ لأنه لولا العلماء ما حُميت الشريعة، ولا دافع عنها أحد؛ ولهذا نجد مثلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من أهل العلم الذين تصدوا لأهل البدع، وبينوا بُطلان بدَعهم، نرى أنَّهم حصلوا على خير كثير.

(٤) أن تنوي بذلك اتباع شريعة محمد ﷺ؛ لأنك لا يمكن أن تتبع شريعة حتى تعلم هذه الشريعة.

"وعليه، فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سُلمًّا لأغراض وأعراض؛ من جاه أو أموال أو تعظيم، أو سُمعة، أو جلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحِمى".

وهذا ما قاله صحيح، حماية النية من هذه المقاصد السيئة، فهو صحيح، ومن طلب علمًا وهو مما يبتغي به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا، فلم يجد رائحة الجنة -نسأل الله العفو والعافية- ثم إن هذه المحمدة والجاه والتعظيم وانصراف وجوه الناس إليك ستجده إذا حصلت العلم حتى وإن كانت نيتك سليمة، بل إذا كانت نيتك سليمة فهو أقرب إلى حصول هذا لك..

وقد قيل: "زلة العالِم مضروب لها الطبل".

لماذا سُميت بالطبوليات؟!

لأنها مثل الطبل لها صوت ورنين، فهذا إذا جاء في مسألة غريبة عند الناس، واشتهرت عنه؛ كأنها صوت الطبل فهذه يسمونَها الطبوليات، ولم أسمع بهذا لكن وجهها واضح..

ومن المعلوم: أنه لا يجوز للعالم أن يقبل هدية السلطان إذا كان يريد السلطان أن تكون هذه العطية مطيَّة له، يركبها متى شاء بالنسبة لهذا

العالم، أما إذا كانت أموال السلطان نزيهة، ولم يكن يقبل الهدية منه ليبيع دينه بها فله أن يأخذها.

فقد قال النبي محمد ﷺ لعُمر: "ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائله فخده، وما لا فلا تتبعه نفسك".

ويؤثر عن سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله قوله:

" ما عالجت شيئًا أشدَّ علي من نيتي".

وفي معنى ذلك... ما أدري هل قول آخر أو نقل بالمعنى؟ يقول: ما عالجت نفسي على شيء أشد من معالجتها على الإخلاص، وهذا بمعنى كلام سفيان: لأن الإخلاص شديد، ولهذا من قال: "لا إله إلا الله خالصًا من قلبه؛ فإنه يدخل الجنة، وهو أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ .

وعن عمر بن ذر أنه قال لوالده: "يا أبِي؛ ما لك إذا وعظت الناس أخذهم البُكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بُنَي، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة" وفقك الله لرشدك آمين .

فهذا مثال عظيم جدا، النائحة الثكلى يعني: التي فقدت ولدها، فهذه تبكي بكاءً من القلب، والنائحة المستأجرة لا يؤثر نوحها ولا بكاؤها لأنَّها تصطنع البكاء، ولكن مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف يجب أن نُحسن الظن بهم، فقد ذكروا لنا ذلك لحث الناس على الإخلاص والبعد عن الرياء.

• الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: "محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ ، وتحقيقها بتمحُّض المتابعة، وقَفْو الأثر للمعصوم، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]

لا شك أن المحبة لها أثر عظيم في الدافع والمنع، إذ إن المحب يسعى غاية الجهد في الوصول إلى المحبوب، فيطلب ما يرضيه وما يقربه منه، ويسعى غاية جهده في الوصول إلى المحبوب، فيطلب ما يرضيه وما يقرب منه، ويسعى غاية جهده في اجتناب ما يكرهه محبوبه، ويبتعد عنه، فلذلك ذكر ابن القيم في "روضة المحبين" أن كل الحركات مبنية على المحبة، كل حركات الإنسان وهذا صحيح، لأن الإرادة لا تقع من شخص عاقل إلا لشيء يرجو نفعه أو دفع ضرره، وكل إنسان يحب ما ينفعه، ويكره ما يضره، فالمحبة في الواقع هي القائد والسائق إلى الله ﷻ تقود الإنسان وتسوقه

وانظر إلى الذين كرهوا ما أنزل الله كيف قال الله فيهم :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]

ذُكر لطلاب الشيخ السعدي رحمه الله أنهم كانوا يقلدونه في خطه رحمه الله مع أنه كان خطه ضعيفا؛ لا تستطيع أن تقرأه، لكن من شدة محبتهم له قلدوه، فالإنسان كلما أحب شخصًا حاول أن يكون مثله في خصاله.

فإذا أحببت النبي ﷺ؛ فإن هذه المحبة سوف تقودك إلى اتباعه صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر الآية التي يُسميها علماء السلف "آية المحنة" يعني الامتحان؛ لأن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله فقال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ [آل عمران: ٣١]

والجواب المتوقع، فاتبعوني تصدقوا أنتم في دعائكم، لأن الآن الشرط والمشروط، إن كنتم تحبون الله فاتبعونِي، تصدقوا في دعائكم أنكم تحبون الله، لكن جاء الجواب ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]

إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله ﷻ هذا هو الثمرة الحقيقية، لا أن تحب الله، بل يُحبك هو، لأن كل إنسان يدَّعي ذلك، وربما يكون ظاهرك محبة الله، ولكن في قلبك شيء لا يقتضي أن الله يحبك، فتبقى غير حاصل على الثمرة.

"وبالجملة: هذان أصل هذه الحلية، ويقعان منها موقع التاج من الحلة، فيا أيها الطلاب ها أنتم هؤلاء تربعتم للدرس وتعلقتم بأنفَسِ عِلْق- طلب العلم- فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى في السر والعلانية، فهي العدة، وهي مهبط الفضائل، ومتنزل المحامد، وهي مبعث القوة، ومعراج السمو، والرابط الوثيق على القلوب عن الفتن، فلا تفرطوا ".

ويدل على هذا قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]

فرقانا: تُفرقون به بين الحق والباطل، النافع والضار، بين الطاعة والمعصية، وبين أولياء الله وأعداء الله، إلى غير ذلك.

وتارة يحصل هذا الفرقان بوسيلة العلم؛ يفتح الله على الإنسان من العلوم، وييسر له تحصيلها أكثر ممن لا يتقي الله

وتارة يحصل له هذا الفرقان بما يلقيه الله تعالى على قلبه من الفراسة، قال النبي ﷺ: "إن يكن فيكم محدَّثون فعمر" (أخرجه البخاري ومسلم)

ويشمل الفرقان بوسائل العلم والتعلم، والفرقان بوسائل الفراسة والإلهام؛ أن الله تعالى يلهم الإنسان التقي ما لا يلهم غيره، وربما يظهر لك هذا في مجراك في طلب العلم، تمر بك أيام تجد قلبك خاشعًا منيبًا إلى الله، مقبلًا إليه، متقيًا له، فيفتح الله عليك مفاتح ومعارف كثيرة، تمر بك غفلة ينغلق قلبك، وكل هذا تحقيق لقول الله تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [الأنفال: ٢٩]

ثلاثة فوائد :-

وإذا غفر الله للعبد أيضًا فتح عليه أبواب المعرفة، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ ﴾ النساء: ١٠٥

وبعدها مباشرة: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ ﴾ النساء: ١٠٦

ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي للإنسان إذا استُفتي أن يقدم استغفار الله، حتى يبين له الحق؛ لأن الله قال : ﴿لِتَحۡكُمَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾

(٢) كن على جادة السلف الصالح

كن سلفيًّا على الجادة، طريق السلف الصالح من الصحابة ﷺ، فمَن بعدهم ممن قَفَا أثرهم في جميع أبواب الدين؛ من التوحيد والعبادات ونحوها، متميزًا بالتزام آثار رسول الله ﷺ، وتوظيف السنن على نفسك، وترك الجدال والمِراء، والخوض في علم الكلام، وما يجلب الآثام، ويصد عن الشرع.

(٣) ملازمة خشية الله تعالى

التحلي بعمارة الظاهر والباطن بخشية الله تعالى، محافظًا على شعائر الإسلام، وإظهار السنة ونشرها بالعمل بها، والدعوة إليها، دالًا على الله بعلمك وسَمتك وعملك، متحليًا بالرجولة، والمساهلة، والسمت الصالح، ومِلاك ذلك خشية الله تعالى ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: "أصل العلم خشية الله تعالى".

فخشية الله هي الخوف منه المبني على العلم والتعظيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]

فالإنسان إذا علم الله ﷻ حق العلم، وعرفه حق المعرفة؛ فلا بد أن يقوم في قلبه خشية الله؛ لأنه إذا علم ذلك، علم عن رب عظيم، عن رب قوي، عن رب قاهر، عن رب عالم بما يسِرُّ ويخفي الإنسان، فتجده يقوم بطاعة الله ﷻ، أتم قيام..

فالحاصل: أن الخشية أعظم من الخوف، ولكن قد يقال: خف الله...

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وهذا في مقابلة فعل هؤلاء الذين يخافون من الناس.

فالزم خشية الله في السر والعلن، فإن خير البرية من يخشى الله تعالى وما يخشاه إلا عالم، إذن فخير البرية هو العالم، ولا يَغِبْ عن بالك أن

العالِم لا يُعد عالِمًا إلا إذا كان عاملًا، ولا يعمل العالم بعلمه إلا إذا لزمته خشية الله.

إذن لا بد من العمل بما يعلم؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.

قال علي بن أبي طالب: "هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل".

(٤) دوام المراقبة

والتحلي بدوام المراقبة لله تعالى في السر والعلن؛ سائرًا إلى ربك بين الخوف والرجاء؛ فإنهما للمسلم كجناحين الطائر، لا يميل جناح عن الآخر وإلا سقط الطائر..

فأقْبِلْ على الله بكلِّيتك، وليمتلئ قلبك بمحبته، ولسانك بذكره، والاستبشار والفرح والسرور بأحكامه وحكمه سبحانه.

فالمراقبة من ثمرات الخشية من الله.

قال الإمام أحمد رحمه الله: "ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ فأيهما غلب هلك صاحبه".

(٥) خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء

تحل بآداب النفس؛ من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر من الوقار، والرزانة، وخفض الجناح، متحملًا ذل التعلم لعزة العلم، ذليلًا للحق.

فطالب العلم مقامه يقتضي العفة عما في أيدي الناس، وعفة عن النظر المحرم، وحلما لا يعاجل بالعقوبة إذا أساء إليه أحد، وصبرا على ما يحصل من الأذى مما يسمعه إما من عامة الناس، وإما من أقرانه، وإما من معلمه، فليصبر وليحتسب، والتواضع للحق، وكذلك للخلق.

والتواضع للحق بمعنى أنه متى بان له الحق خضع له ولم يبغ سواه بديلًا.

وكذلك الخلق، فكم من طالب فتح على معلمه أبوابًا ليست على بال منه، ولا تحقرن شيئًا.

وينبغي لطالب العلم أن يبتعد عن الخفة، سواء كان في مشيته، أو في تعامله مع الناس، وألا يكثر من القهقهة التي تُميت القلب، وتذهب الوقار، بل يكون خافضًا للجناح، متأدبًا بالآداب التي تليق بطالب العلم.

أما عن قول "ذل التعلم لعزة العلم" هذا يعني أنك لو أذللت نفسك للتعلم؛ فإنما تطلب عزها بالعلم، فيكون تذليلها بالتعلم، لأنه ينتج ثمرة طيبة.

(٦) القناعة والزهد

التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد: "الزهد بالحرام والابتعاد عن حماه بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس".

فالقناعة من أهم خصال طالب العلم، يعني: أن يقتنع بما آتاه الله ﷻ ولا يطلب أن يكون في مصاف الأغنياء والمترفين، لأن بعض طلبة العلم وغيرهم يريد أن يكون في مصاف الأغنياء والمترفين، فيتكلف النفقات في المأكل والمشرب والملبس والمفرش، ثم يثقل كاهله بالديون، وهذا خطأ، بل عليك بالقناعة، فإنها زاد المسلم..

وأما الزهاد فيقول: حقيقية الزهد: الزهد بالحرام والابتعاد عن حماه بالكف عن المشتبهات، وكأنه أراد بالزهد هنا: الورع؛ لأنه هناك ورع وزهد، والزهد أعلى مقامًا من الورع؛ لأن الورع : ترك ما يضر في الآخرة وقيل: ترك المباح مخافة الوقوع في الحرام.

والزهد : ترك ما لا ينفع في الآخرة فبينهما فرق..

الفرق بينهما: المرتبة التي ليس فيها ضرر، وليس فيها نفع، فالورع لا يتحاشاها

والزهد يتحاشاها ويتركها؛ لأنه لا يريد إلا ما ينفعه في الآخرة.

ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله: " لو أوصى إنسان لأعقل الناس صرف إلى الزهاد".

الله أكبر، ما أعظم تلك الوصية، ويعني بها لو قال: أوصيت لأعقل الناس، يصرف إلى من؟ إلى الزُهاد؛ لأن الزهاد هم أعقل الناس، حيث

تجنبوا ما لا ينفعهم في الآخرة. وهذا الذي قاله رحمه الله ليس على إطلاقه؛ لأن الوصايا والأوقاف والهبات والرهون وغيرها ترجع إلى معناها في العرف فإذا كان أعقل الناس في عرفنا هم الزهاد، صرف لهم ما أوصى به للزهاد، وإذا كان أعقل الناس هم ذوو المروءة والوقار والكرم في المال والنفس صرف إليهم.

(٧) الرضا باليسير من القوت والصبر على ضيق العيش

• قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: يُستعانُ على الفِقْهِ بجمع الهَمَّ، ويُستعانُ على حذف العلائِقِ بأخذ اليَسير عند الحاجة ولا يزِد.

• قال الإمام مالك: لا يبلُغُ أحد من هذا العلم ما يريدُ حتى يضرِبَهُ الفَقْرُ، ويؤثِرَه على كُلِّ شيء.

• قال الإمام الشافعي رحمه الله: لا يطلبُ أحدٌ هذا العلمَ بالمُلك وعز النفس فيُفلِح، ولكن من طَلَبَهُ بِذُلِّ النفسِ وضيق العيش وخِدمة العُلماء أفْلَحَ.

• وقال أيضًا: لا يُدركُ العلمُ إلا بالصبر على الذُّل.

• وقال ابنُ جماعة: "مِنْ أعظَم الأسباب المُعينة على الاشتغال والفهم وعدم المِلَال: أكل اليسير من الحلال، وذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية والتعرض لخطر الأسقام البدنية "

(٨) تحلَّ بالمروءة

التحلي بـ (المروءة)، وما يحمل إليها من مكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وتحمُّل الناس، والأنفة من غير كبرياء، والعزة في غير جبروت، والشهامة في غير عصبية، والحميَّة في غير جاهلية.

ما هي المروءة ؟!

حدَّها الفقهاء-رحمهم الله- في كتاب الشهادات قالوا: هي فعل ما يجمِّله ويزينه، واجتناب ما يدنسه، ويشينه، وهذه عبارة عامة، كل شيء يجمِّلك عند الناس، ويزينك ويكون سببًا للثناء عليك فهو مروءة، وإن لم يكن من العبادات، وكل شيء بالعكس فهو خلاف المروءة.

فضرب مثلا لهذا وقال: من مكارم الأخلاق

- **فما هو كرم الخلق؟!**

هو أن يكون الإنسان دائمًا متسامحًا وأن يتسامح في موضع التسامح ويأخذ بالعزم في موضع العزيمة.

لذلك جاء الدين الإسلامي وسطًا بين التسامح، الذي تضيع به الحقوق، وبين العزيمة التي ربما تحمل على الجور.

- **ما هي مكارم الأخلاق؟!**

هي أن يتخلق الإنسان بالأخلاق الفاضلة الجامعة بين العفو والإحسان؛ فيأخذ بالحزم في موضع الحزم، وباللين واليسر في موضع اللين واليسر.

طلاقة الوجه أيضًا من مكارم الأخلاق

- وهل أُطلق وجهي لكل إنسان حتى لو كان من أجرم المجرمين؟!

لا على حسب الحال أطلق الوجه في ستة من تسعة، وهذا يعني الثلثين، والثلث دعه لما تقتضيه الحال، ليكن سِمَتُك طلاقة الوجه، هذا أحسن شيء، تجذب الناس إلى نفسك ويحبك الناس، ويستطيعون أن يفضوا إليك ما يفضون من أسرارهم، أن يتكلموا معك، لكن إذا اقتضت الحال ألا تطلق الوجه فافعل، ولهذا لا يلام الإنسان على العبوسة له مطلقًا، ولا يمدح على تركها مدحًا مطلقًا.

- **إفشاء السلام على من؟ كل شخص؟**

إفشاء السلام أي نشره وإظهاره لا ليس على كل أحد، على من يستحق أن يسلم عليه، على المسلم وإن كان عاصيًا، وإن كان زانيًا، وإن كان سارقًا، وإن كان مرابيًا، وإن كان يشرب الخمر، أي مسلم ألقي إليه السلام..

لقول النبي ﷺ : [لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه المؤمن فوق فوق ثلاث -أو قال: أخاه فوق ثلاث- يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام]. (أخرجه البخاري ومسلم)

فإن فعل المؤمن منكرًا ولا سيما إذا كان منكرًا عظيمًا، يُخشى منه أن يتفتت المجتمع الإسلامي، فحينئذ يكون هجره واجبًا إن نفع الهجر.

وإنما أقول ذلك لئلا يرد علينا قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك؛ فإن رسول الله ﷺ أمر بهجره، أمر أن يهجره الناس

فهجروه، وصاروا لا يتكلمون معه، حتى إذا ذات يوم تسوَّر حديقة أبي قتادة ﷺ، وهو ابن عمه وأحب الناس إليه، فسلم على أبي قتادة فلم يرد عليه السلام، فسلم ثانية؛ فلم يرد السلام، فسلم ثالثة فلم يرد السلام، فقال: أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ يعني : كيف تهجرني وأنا أحب الله ورسوله؟

هل تعلم يعني ألم تعلم، ولم يرد عليه، ما قال: (نعم)، ولا : (لا)، قال: الله ورسوله أعلم...

لم يجب، لماذا؟!

لأن النبي ﷺ أمرهم، ولو أمرهم أن يفعلوا أكبر من ذلك لفعلوا.

المهم أن الصحابة هجروه، لأنه تخلف عن غزوة تبوك، وكان هجرهم بأمر من رسول الله ﷺ، تصوروا يا إخواني، يأتي ويسلم على الرسول ﷺ، يقول : لا أدري .. أحَرَّك شفتيه برد السلام أم لا؟

يعني هو لا يسمع الرد قطعًا، لكن لا يدري هل حرك شفتيه أم لا؟ ولكن الرسول يحبه، لأن كعبًا إذا قام يصلي جعل النبي ﷺ يسارقه النظر، ينظر إليه.

فهل هذا الهجر الذي وقع من الصحابة لكعب بن مالك له أثر أم لم يؤثر؟

- هل له أثر أو لم يؤثر؟!

أثر رجوعًا عظيمًا إلى الله ﷻ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١١٨]

ظنوا: بمعنى أيقنوا في اللجوء إلى الله، ففرج الله عنهم، فهذا أثر تأثيرا عظيمًا وحصل به مصلحة عظيمة، تتلى قصتهم في كتاب الله ﷻ إلى قيام الساعة، يقرؤها المسلمون كلهم في صلواتهم، وفي خلواتهم، يذكرونهم كلما مروا بذكرهم، هذه فائدة وتربية عظيمة من الله ﷻ.

فهي محنة عظيمة لكعب، جاءه كتاب من ملك غسان، فقال له في الكتاب: إنه بلغنا أن صاحبك قلاك، يعني: أبغضك، وهجرك وأمر بذلك المسلمين وقتها، فالحَقْ بنا نواسك، ائت إلينا نجعلك مثلنا، كأنه يشير إلى ملك غسان

- فماذا فعل؟

رأى أن هذه فتنة عظيمة، ذهب بالورقة فسجَّر بها التنور، يعني: أحرقها إحراقًا تامًّا، كراهة لها، ولما تضمنته، ولئلا تغلبه نفسه في المستقبل، حتى يجيب لهذا الطلب، وهكذا يكون الإيمان، وهذه ولا شك محنة عظيمة، حصلت من أجل هذه القصة.

- فالحاصل: أن إفشاء السلام الأصل فيه ماذا؟!

الأصل فيه أنه عام لكل واحد من المسلمين، إلا من جاهر بمعصية،

وكان من المصلحة أن يهجره فليهجره.

• أما غير المسلمين؛ فقد قال النبي ﷺ : " لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام". أخرجه مسلم

فيحرم علينا أن نبدأ اليهود والنصارى، ومن سواهما أخبث منهما، فلا تبدؤوهم بالسلام، وإن سلَّمُوا هُم، فردوا عليهم لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]

• فإذا قالوا: "السلام عليكم"، نقول : "وعليكم السلام"، صراحة؛ لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ ، ولأن النبي ﷺ إنما أمر أن نقول: وعليكم. بأنهم يقولون: السام عليكم كما جاء مصرحًا به في حديث عبد الله بن عمر قال "إن اليهود" -أو قال "أهل الكتاب"- يقولون: السام عليكم، فإذا سلموا فقولوا : "وعليكم".

وعليه؛ فتنكبْ (خوارم المروءة)؛ في طبع، أو قولٍ، أو عمل، من حرفة مَهِينة، أو خَلَّة رديئة، كالعُجْب، والرياء، والبَطَر، والخُيَلاء، واحتقار الآخرين، وغَشَيان مواطن الريب.

تنكب: "أي أبعد عن خوارم المروءة في طبع، أو قول، أو عمل".

يعني في طباعك، حاول أن تكون طباعك ملائمة للمروءة، ومن المعلوم أنه ليس التكحل في العينين كالكحل، وليس التطبع كالطبع، لكن الإنسان مع ممارسة الشيء ربما يكون الكسب غريزة، والتطبع طبيعة، وإلا فإن الإنسان لو حاول ما يحاول من الأخلاق، وطبعه ليس كذلك، سيجد صعوبة لكن مع التمرن يحسن أو تحسن حاله، وهذا مجرب، فقد سمعنا

عن بعض الناس الذين كانوا بعيدين عن العلم، وعن طلب العلم، له أخلاق سيئة ثم لما منَّ الله عليه بالعلم والهداية، صارت أخلاقه طيبة؛ لأنه مرن نفسه على هذه الأخلاق، حتى صارت كأنَّها من طباعه وغرائزه.

قوله: "من حرفة مهينة، أو خلة رديئة ".

الخلة يعني : الخصلة.

المهينة : كل ما يحترق الإنسان من عمل.

ثم ضرب لذلك أمثله بقوله: كالعجب، أن يعجب الإنسان بنفسه فإذا استنبط فائدة، قال : هذه فائدة ما شاء الله، أنا استنبطتها، هذه لا يستنبطها أكبر عالم، ثم أعجب بنفسه، ورأى نفسه كبيرًا، وانتفخ.

• الرياء: أن يرائي الناس، بأن يتكلم في العلوم أمامهم، حتى يروا أنه عالم فيقال: هذا عالم.

• البطر: رد الحق وهذا يحدث في المجادلات والتعصب لرأي من الآراء، أو لمذهب من المذاهب، تجده يغمط الآخرين، يرد الحق؛ لأنه خلاف ما يرى.

• الخيلاء: نتيجة العُجب؛ يعني: يظهر نفسه مظهر العالم الواسع العلم، ومن ذلك أن يكون للعلماء في بلد ما زي خاص في اللباس، فيأتي هذا الإنسان البادئ في العلم؛ فيلبس لباس كبار العلماء، ليظن الظان بأنه من كبار العلماء، هذا من الخيلاء.

كذلك أيضًا احتقار الآخرين فالبطر هو احتقار الآخرين، هو الكبر، كما قال النبي ﷺ : " الكبر: بطر الحق، وغمط الناس" أي: احتقارهم.

(٩) التمتع بخصال الرجولة

وهذا كالتكميل للأول؛ لأن التمتع بخصال الرجولة من المروءة بلا شك؛ فإن الإنسان إذا نزَّل نفسه منزلة الرجال الذين هم رجال بمعنى الكلمة، فإنه سوف يتمتع بما ذكره: الشجاعة، شدة البأس في الحق، ومكارم الأخلاق، البذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجولة؛ يعني: حتى لا يَهُمَّ أحد بأن يسبقك بما أنت عليه من هذه الخصال.

(١٠) هجر الترفه

وهو ألا تسترسل في (التنعم والرفاهية) وهذا لطالب العلم وغيره؛ لأن الاسترسال في ذلك مخالف لإرشاد النبي ﷺ، فقد كان ينهى عن كثرة الإرفاه، ويأمر بالاحتفاء أحيانًا، والإنسان الذي يعتاد الرفاهية يصعب عليه مواجهة الأمور؛ لأنه قد تأتيه الأمور على وجه لا يتمكن معه من الرفاهية، ولنضرب لذلك مثلًا بهذا المثل الذي ذكرناه في الحديث: يأمر بالاحتفاء أحيانًا: بعض الناس لا يحتفي.. دائمًا عليه الجورب، وعليه الخف، وعليه النعل، لا تجده يمشي، هذا الرجل لو عرض له عارض وقيل له: تمشي خمسمائة متر بدون وقاية للرجل، لوجدت ذلك يشق عليه مشقة عظيمة، وربما تدمى قدمه من مماسة الأرض، لكن لو عوَّد نفسه على الخشونة، وعلى ترك الترفه دائما لحصل له خير كثير..

ولذلك إن لم يُعوِّد الإنسان البدن على مثل هذه الأمور، لم يكن عنده مناعة، فتجده يتألم من أي شيء من ذلك..

لكن إذا كان عنده مناعة لا يهتم به، ولهذا تجد أيدي العمال الآن أقوى بكثير من أيدي طلبة العلم.. ما في مانع لأنها تعودت واعتادت على ذلك، حتى أن بعض العمال وفيما سبق لما كانوا يعانون الطين، واللبن، إذا مسستها كأنما مسست حجرًا من خشونتها، ولو أنه ضم أصابعه على يدك لآلمك كثيرًا؛ لأنه اعتاد على ذلك، فترفيه الإنسان نفسه لا شك أنه ضرر عليه كبير.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: "إياكم والتنعم وزي العجم، وتَمَعْدَدُوا، واخْشَوْشِنُوا".

- فإياكم والتنعم يعني: أحذركم والتنعم، هذه الواو للعطف، وقيل للمعية والمعنى: أحذركم مع التنعم، يعني أن تكونوا مع التنعم، التنعم باللباس، وبالبدن، وكل شيء، والمراد بذلك كثرته؛ لأن التنعم بما أحل الله على وجهٍ لا إسراف فيه، من الأمور المحمودة بلا شك، ومن ترك التنعم بما أحل الله، ومن غير سبب شرعي فهو مذموم.
- وقوله : " زي العجم"

شكله، سواء كان ذلك في الحلية كشكل شعر الرأس أو اللحية أو ما أشبه ذلك.

فكن حذرًا في لباسك لأنه يعبر لغيرك عن تقويمك؛ في الانتماء، والتكوين، والذوق، ولهذا قيل: الحلية في الظاهر تدل على ميل الباطن،

والناس يصنفونك من لباسك، بل إن كيفية اللُبس تعطي للناظر تصنيف اللابس من:

الرصانة والتعقل، أو التمشيخ والرهبنة، أو التصابي وحب الظهور .

فخذ من اللباس ما يزينك ولا يشينك، ولا يجعل فيك مقالًا لقائل، ولا لمزًا للامز، وإذا تلاقى ملبسك وكيفية لبسك بما يلتقي مع شرف ما تحمله من العلم الشرعي؛ كان أدعى لتعظيمك والانتفاع بعلمك، بل بحسن نيتك يكون قربة، إنه وسيلة إلى هداية الخلق للحق.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب ﷺ: "أحب إلي أن أنظر القارئ أبيض الثياب".

أي: ليعظم في نفوس الناس، فيعظَّم في نفوسهم ما لديه من الحق.

- وقوله " تمعددوا"

بمعنى معد بن عدنان هذا أعلى أجداد الرسول ﷺ بعد عدنان وهو لا شك من صميم العرب، فكأنه يقول: اتركوا العجم وعليكم بزي العرب، معد بن عدنان.

- وقوله " اخشوشنوا"

فهو من الخشونة التي هي ضد الليونة، والتنعم.

وكل هذه وصايا من عُمر ﷺ.. وصايا نافعة لو أن الناس عملوا بها، سواء من طلبة العلم، أو غير طلبة العلم، لكان في هذا خيرٌ كثيرٌ، لكن الآن في البلاد التي منَّ الله عليها بالأمن وطيب العيش وكثرة المال، صار الأمر بالعكس، بالعكس تمامًا، فالتنعم موجود، لا يريد الإنسان إلا أن يركب

مركبًا مريحًا، ويبني قصرًا مشيدًا، ولا يناله شيء من الأذى، لا يريد أن يصيبه شيء، متنعم تمامًا، ولهذا كثرت فيهم الأوبئة، التي تترتب على عدم الحركة، مثل السمنة، والضغط، وضيق التنفس، وعدم القدرة..

فتجد شابًّا، تصعد أنت وهو الجبل، لا ينتصف الجبل إلا وقد ثار نَفَسه حتى كاد يثور بدنه، وأنت مستريح لماذا؟!

لأنك تعودت، وهو لم يتعود مع أنه شاب، لكن لم يعود نفسه.

(١١) الإعراض عن مجالس اللغو

لا تطأُ بِساطَ من يَغْشون في ناديهم المنكر، ويهتكون أستار الأدب، متغابيًا عن ذلك، فإن فعلت ذلك، فإن جنايتك على العلم وأهله عظيمة.

فاللغو نوعان:

لغو ليس فيه فائدة ولا مضرة، ولغو فيه مضرة .

- أما الأول: فلا ينبغي للعاقل أن يُذْهِب وقته فيه؛ لأنه خسارة.
- والثاني: منكر يحرم عليه أن يمضي وقته فيه؛ لأنه منكر محرم.

فلا يجوز للإنسان أن يجلس فيها؛ لأن الله تعالى يقول:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ ﴾ [النساء: ١٤٠]

فمن جلس مجلس منكر، وجب عليه أن ينهي عن هذا المنكر، حتى يستقيموا فهذا هو المطلوب، وإن لم يستقيموا وأصروا على منكرهم، فالواجب أن تنصرف، خلافًا لما يتوهمه بعض العامة، يقول: إن الرسول ﷺ قال: "فإن لم يستطع فبقلبه" وأنا كاره لهذا المنكر في قلبي، وهو جالس مع أهله، فيقال له: لو كنت كارهًا حقًّا لهذا المنكر ما جلست معهم؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يجلس وهو كارهٌ لمن فيه، أما شيئًا تكرهه وتجلس باختيارك؛ فإن دعواك كراهته ليست بصحيحة.

وقوله: فإن فعلت ذلك فجنايته على العلم وأهله عظيمة: أما كونه جناية على نفسه؛ فالأمر ظاهر يعني لو رأينا طالب علم، يجلس في مجلس اللهو واللغو والمنكر فجنايته على نفسه واضحة وعظيمة، لكن كيف تكون جنايته على العلم وأهله؛ لأن الناس يقولون هؤلاء طلبة علم، هؤلاء العلماء، هذا نتيجة العلم، وما أشبه ذلك، فيكون قد جني على نفسه وعلى غيره.

(١٢) التحلي بالرفق

التزم الرفق في القول؛ مجتنبًا الكلمة الجافة؛ فإن بالخطاب اللين تتألف النفوس الناشزة، وأدلة الكتاب والسنة في هذا كثيرة.

فهذه من أهم الأخلاق لطالب العلم، سواء كان طالبا أو مُعلما، فالرفق كما قال النبي ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله".

(أخرجه البخاري ومسلم)

ولهذا قال الله تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤]

ولكن لا بد أن يكون الإنسان رفيقًا في غير ضعف، أما أن يكون رفيقًا يمتهن ولا يؤخذ بقوله ولا يهتم به فهذا خلاف الحزم، لكن يكون رفيقًا في مواضع الرفق، وعنيفًا في مواضع العنف، ولا أحد أرحم بالخلق من الله ﷻ، ومع ذلك يقول في الزاني والزانية:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

[النور: ٢]

فلكل مقام مقال، لو أن الإنسان عامل ابنه برفق في كل شيء حتى ما ينبغي فيه الحزم، ما استطاع أن يربيه..

(١٣) التأمل

التحلي بالتأمل فإن من تأمل أدرك، وقيل: "تأمَّل تُدْرِك".

وعليه؛ فتأمل عند التكلم بماذا تتكلم، وما هي عائدته؟

وتحرز في العبارة والأداء دون تعنُّت أو تحَذْلُق،

وتأمل عند المذاكرة كيف تختارُ القالب المناسب للمعنى المراد،

وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين، وتأمل عند الجواب، كيف يكون جوابك، هل هو واضح لا يحصل فيه لبس أو مبهم؟ وهل هو مفصل أو مجمل؟ حسب ما تقتضيه الحال... وهكذا.

(١٤) الثبات والتثبت

تحل بالثبات والتثبت لا سيما في المُلِمَّات والمُهِمَّات ومنه: الصبر، والثبات في التلقي، وطي الساعات في طلب على الأشياخ فإن "من ثَبَتَ نَبَتَ".

هذا أهم ما يكون؛ أهم ما يكون في هذه الآداب هو التثبت، فيما ينقل من الأخبار، والتثبت فيما يصدر منك من الأحكام، فالأخبار إذا نقلت فلا بد أن تتثبت أولًا هل صحت عمن نقلت عنه أو لا؟ ثم إذا صحت، فلا تحكم حتى تتثبت في الحكم، ربما يكون الخبر الذي سمعته -ربما يكون-

مبنيًّا على أصل تجهله أنت، فتحكم بأنه خطأ، والواقع أنه ليس بخطأ، ولكن كيف العلاج في هذه الحالة؟!

العلاج: أن تتصل بمن نسب إليه الخبر، وتقول: نقل عنك كذا وكذا، فهل هذا صحيح؟ ثم تناقشه، فقد يكون استنكارك ونفور نفسك منه أول وهلة سمعته، لأنك لا تدري ما سبب هذا المنقول، ويقال: إذا علم السبب بطل العجب، فلا بد أولًا من التثبت، ثم بعد ذلك تتصل بمن نقل إليه وتسأله هل صح ذلك أو لا؟!

ثم تناقشه؛ فإما أن يكون هو على حق وصواب فترجع إليه أو يكون الصواب معك فيرجع إليه.

الثبات والتثبت: هذان شيئان متفقان لفظًا لكنهما مختلفان معنى، فالثبات معناه: الصبر والمصابرة، وإلا يمل ولا يضجر وألا يأخذ من كل كتاب نتفة، أو من كل فن قطعة، ثم يترك، لأن هذا هو الذي يضر بالطالب، يقطع عليه الأيام بلا فائدة إذا لم يثبت على شيء، فالتأصيل والرسوخ والثبات؛ هذا هو المهم .

(١٥) التواضع للعلم والعلماء

العِلْمُ حَرْبٌ للفَتَى المُتَعَالِي ... كالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلمَكَانِ العَالِي

فينبغي لطالب العلمِ أن ينقادَ لمُعلِّمه، ويشاوِره في أمورِه، كما ينقادُ المريض لطبيب حاذقٍ ناصحٍ.

قال الشافعي رحمه الله:

أُهِينُ لَهُمْ نَفْسِي فَهُمْ يُكْرِمُونَهَا .. ولن تُكْرَمَ النَّفْسُ التي لا تُهِينُهَا

وينبغي أن ينظر معلِّمه بعينِ الاحترامِ، ويعتقدُ كمال أهليتهِ ورُجحَانِهِ على أكثر طبقتِهِ، فهو أقرب إلى انتفاعِهِ به ورسوخ ما سَمِعَه منه في ذهنه.

وقد كان بعض السلف إذا ذهب إلى معلِّمِهِ تَصَدَّق بشيءٍ وقال: اللهم استُر عيب مُعَلِّمِي عني، ولا تُذْهِبَ بَرَكَةَ عِلْمِهِ مِنِّي.

قال الشافعي: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحًا رفيقًا؛ هيبةً له؛ لئلا يسمع وقعها.

وقال أحمد بن حنبل لخلفٍ الأحمر: لا أقعدُ إلا بين يديك، أُمِرْنَا أن نتواضع لمن نَتَعَلَّم منه.

وقال الربيع: والله، ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظرُ إليَّ؛ هيبة له.

وفي وصية جامعة للإمام عليٍّ ﷺ قال:

من حَقِّ العَالِم عليك: أن تُسَلِّمَ على القومِ عامةً وتخصَّه بالتَّحِيَّةِ، وأن تجلسَ أمامَهُ، ولا تشيرنَّ عنده بيدك، ولا تغمِزنَّ بعينِك عنده، ولا تقولن: قال فلان خلاف قولِهِ، ولا تغتابَنَّ عنده أحدًا، ولا تسارَّ في مجلسِهِ، ولا تأخذْ بثوبِهِ، ولا تلح عليه إذا كَسَلَ، ولا تشبعْ من طول صحبَتِهِ؛ فإنما هو كالنخلةِ تنتظرُ متى يسقُطُ عليك منها شيء .

(١٦) صفته في مشيه إلى العلماء

يمشي برِفقٍ وحِلم، ووقارٍ وأدب، مكتسِبٌ في مَشيه كلَّ خير، وتارةً يُحبُّ الوحدة، فيكون للقرآن تاليًا، وتارةً بالذِّكر مشغولًا، وتارةً يُحدِّثُ نفسه بِنعَمِ الله ﷻ عليه، ويقتضي منها الشكر، يستعيذُ باللهِ من شرِّ سمعه، وبصره، ولسانه، ونفسه، وشيطانه.

فإن بُلِيَ بمصاحبة الناس في طريقه، لم يصاحِب إلا من يعودُ عليه نفعُه، قد أقام الأصحاب مقام ثلاثة:

- إما رجلٌ يتعلم منه خيرًا "إن كان أعلم منه" .
- أو رجل هو مثله في العلم، فيذكرُه العلم لئلا ينسى ما لا ينبغي أن ينساه.
- أو رجلٌ هو أعلم منه فيُعلِّمه، يريد الله ﷻ بتعليمِه إياه.

لا يَمَلُّ من أصحابه لكثرةِ صُحبةٍ، بل يُحِبُّ ذلك لما يعودُ عليه من بركته، قد شغل نفسه بهذه الخصال، خائف على نفسه أن يشتغلَ بغير حق، قد أجمع الحذَرَ من عدوِّ الشيطان، كراهيةَ أن يُزيّنَ له قبيحَ ما نُهِي عنه، يُكثِرُ الاستعاذة بالله من علم لا ينفع، ويسألُه علمًا نافعًا، هَمُّه في تلاوةِ كلام الله ﷻ الفهمُ عن الله فيما أمر ونهى، وفي حفظِ السُنن والآثار والفقه، لئلَّا يضيّعَ ما أُمر به، ولأن يتأدَّبَ بالعلم، طويلُ السكوت عما لا يعنيه، حتى يشتاقَ جليسُه إلى حديثه، إن ازداد علمًا خاف من ثباتِ الحجه، فهو مشفقٌ في علمه،كلما ازداد علمًا ازداد إشفاقًا، إن فاته سماع

علمٍ قد سمعه غيرُه فحَزِن على فوته، لم يكن حُزنُه بغفلةٍ حتى يواقِفَ نفسه، ويحاسبهَا على الحزن، فيقول: لِمَ حزنتِ؟ احذري-يا نفس- أن يكون الحزنُ عليكِ -لا لكِ- إذ سَمِعَه غيرُك، فلم تسمعيه أنتِ فكان أولى بكِ أن تحزَني على علمٍ قد قَرَع السمع، وقد ثبتت عليك به الحجةُ فلم تعمِلي به، فكان حزنُكِ على ذلك أولى من حُزنِكِ على علمٍ لم تسمعيه، ولعلَّكِ لو قُدِّر لكِ سماعُه كانت الحجةُ عليكِ أوكد وأعظم .

فاستغفر الله من حزنه، وسأل مولاه الكريم أن ينفعه بما قد سمع.

(١٧) صفة مجالسته للعلماء

فإذا أحبَّ مجالسةَ العلماء جالَسهم بأدب، وتواضع في نفسه، وخَفَض صوته عن صوتهم، وسألهم بخضوع، ويكونُ أكثرُ سؤاله عن علمٍ ما تعبَّدَه اللهُ به، ويُخبِرُهم أنه فقيرٌ إلى علم ما يسأل عنه، فإذا استفاد منهم علمًا أعلمهم: أني قد أفدت خيرًا كثيرًا، ثم شَكَرهم على ذلك.

وإن غضِبوا عليه لم يغضب عليهم، ونَظَر إلى السبب الذي مِن أجله غضِبوا عليه، فرجع عنه، واعتذر إليهم، لا يُضجِرُهم في السؤال، رفيقٌ في جميع أموره، لا يناظرُهم مناظرةً يُريهم أني أعلمُ منكم؛ وإنما هِمتُه البحث لطلب الفائدة منهم، مع حُسن التلطف لهم، لا يجادلُ العلماء ولا يُماري السفهاء، يُحسِنُ التأني للعلماء مع توقيرِه لهم، حتى يتعلم ما يزدادُ به عند الله فهمًا في دينه.

(١٨) أداءُ حقوق مُعلمك عليك

على طالب العلم أن يتحرى رِضَا المُعَلِّم وإن خالف رأي نفسِه، فإنَّما هو يُرضِي ربَّه بِرضَا معلِّمه.

وعليه ألا يفشي سِر معلِّمه، وألا يغتابَ عنده أحدًا، وأن يَرُدَّ غيبتُهُ إذا سمِعها، فإن عجز فارق ذلك المجلس.

وآهٍ ممن ينقل السوء ويسعى بالنميمة بين أهل العلم، فيقطعُ رحِمهم الموصولة!! وقد ابتُلينا في هذا الزمان بأمثال هؤلاء، فكم من خلافات نشبت بسبب هؤلاء النمامين!! وليته صمت فنجا، وليته أمسك لسانه!! ولكن ذهب الأدب!!

ومن الأدب كذلك ألا يدخُلَ عليه بغير إذنٍ، وإذا دخلُوا عليه جماعة قدَّمُوا أفضلَهم وأسنهم.

وينبغي ألا يخاطب شيخه بتاءِ الخطابِ وكافِه !، مثل (أنت، أنتِ) ولا يناديه من بُعْدٍ، ولا يسميه في غيبة باسمِه إلا مقرونًا بما يُشعِرُ بتعظيمه كأنه يقول: قال الشيخ أو الأستاذ أو مُعلمي وهذا الأفضل.

وعليه أن يصبر، فلن ينال العلمَ إلا بذُل النفس، فيصبر على شدة شيخه به، فإنما يريد به الخير من حيث لا يدري.

قال ابن جريج رحمه الله: لم أستخرج الذي استخرجتُ من عطاء رحمه الله إلا برفقي به.

(١٩) التحلي بآداب مجلس العلم

ينبغي لطالب العلم أن يدخُلَ على معلمه وهو كامل الهيئة، فارغ القلب من الشواغل، متطهرًا متنظفًا بسواكٍ وقص شارب وظُفْرٍ، وإزالة كريه رائحةٍ.

ولا يتخطَّى رقاب الناس، بل يجلس حيث انتهى به المجلس، إلا أن يصرح له الشيخ بالتقدم والتخطي، أو يعلم من حالِهم إيثار ذلك.

ويسلم على الحاضرين كلهم بصوتٍ يسمِعُهم إسماعًا محقَّقًا، ويخص الشيخ بزيادة إكرامٍ، وكذلك يسلمُ إذا انصرف.

ولا يقيمُ أحد من مجلسه، فإن آثره غيره بمجلسِه لم يأخذه إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين، بأن يقرب من الشيخ، ويُذكره مذاكرة ينتفع بها الحاضرون.

ولا يجلسُ وسط الحلقة إلا لضرورة، ولا بين صاحبين إلا برضاهما، وإذا فسح له قعد وضم نفسه.

وينبغي أن يُبكر للمجلس، ويحرص على القرب من الشيخ؛ ليفهم كلامه فهمًا كاملًا بلا مشقة، وهذا بشرط ألا يرتفع في المجلس على أفضل منه.

ويتأدبُ مع رُفْقَتِه وحاضِري المجلس فإن تأدُّبَه معهم تأدُّبٌ مع الشيخ واحترامٌ لمجلسه.

وإذا قَعَدَ قَعَدَ قعْدَةَ المتعلِّمين لا قعدَةَ المُعَلِّمِين، أي أنني جئت متعلما

وليس مُعلما..

ولا يرفع صوته رفعًا بليغًا من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام بلا حاجة، ولا يعبثُ بيده ولا غيرها، ولا يلتفت بلا حاجة، بل يُقْبِلُ على الشيخ مصغيًا إليه.

وإذا سمِع الشيخ يقولُ مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها فعليه أن يُصغي لها إصغاء من لم يحفظها.

وإذا جاءَ مجلس الشيخ فلم يجده انتظره، ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه فلا يشق عليه بطلب الإقراء لغيره.

(٢٠)آداب سؤال المُعلم

- ينبغي لطالب العلم أن يغتنم سؤال مُعلمه عند طيبِ نفسِه وفراغِه.
- وعليه أن يتلطف في سؤالِه، ويحسن خطابه.
- ولا يستحي من السؤال عما أُشكِلَ عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقَّ وجهُه رقَّ علمُه، ومن رقَّ وجهه عند السؤال ظهر نقصُه عند اجتماع الرجال.
- وإذا قال له الشيخ: أفهمتَ؟! فلا يقول: (نعم)؛ حتى يتضح له المقصود إيضاحًا جليًّا؛ لئلا يكذب ويفوته الفهم.

• وعليه ألا يستحيي من قول: (لم أفهم)؛ لأن استثباته واستيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة:

فمن العاجلة: حفظُهُ المسألة وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهم ما لم يكن فهِمه.

ومنها: اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسِه وعدم نِفاقه.

ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائمًا، واعتياده هذه الأخلاق المرضية.

قال الخليل بن أحمد رحمه الله: منزلةُ الجَهْلِ بين الحياء والأنفة

• وعليه ألا يساعد شيخه في الإجابة بعد سؤاله.

• ولا يسأل عما لا يعنيهِ، فلا يفترض المسائل، بل يسألُ عما يفيدُهُ في آخرتِهِ.

• ولا يُورد على شيخه الشبهات ابتغاء تعجيزه، ولا يسمي عنده من يخالفه لئلا يحرجَهُ.

(٢١) عدم التسويف واغتنام الوقت

فلا يُسَوِّف في اشتغالِه ولا يؤخر تحصيل فائدة، فللتأخير آفات، وكفى أنه يضيعُ عليه من الفوائد ما كان يمكنُهُ الإلمام بها ولولا تقصيرُه وكسله.

قال الربيع: لم أرَ الشافعي رحمه الله آكلًا بنهارٍ ولا نائمًا بليل؛ لاهتِمامِه

بالتصْنيف.

فينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة.

قال عُمر ﷺ: تفقهُوا قبل أن تسُودُوا.

قال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقُّه.

(٢٢) صفته إذا عُرف بالعلم

فإذا نَشر اللهُ له الذكر عند المؤمنين أنه من أهل العلم، واحتاج الناسُ إلى ما عنده، ألزم نفسَه التواضع للعالِمِ وغير العالِم.

- فأمَّا تواضعُه لمن هو مِثلُه في العلم، فإنها محبةٌ تَنبُتُ له في قلوبهم.
- وأما تواضعُه للعلماء فواجبٌ عليه، إذ أراه العلم ذلك.
- وأما تواضعُه لمن هو دونه في العلم، فشرفُ العلم له عند الله وعند أولي الألباب، وكان من صفته في عِلمِه وصدقِه وحُسن إرادته يريدُ الله بعلمه.

فمِن صفته: أنه لا يطلبُ بِعلمه شرف منزلة عند الملوك، ولا يحملُه إليهم، صائنٌ للعلم إلا عن أهله، ولا يأخذُ على العلم ثمنًا، ولا يستقضي به الحوائج، ولا يُقرّبُ أبناءَ الدنيا ويباعدُ الفقراء، ويتجافى عن أبناء الدنيا، يتواضعُ للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم.

وإن كان له مجلسٌ قد عُرف بالعلم، ألزم نفسه حُسنَ المداراة لمن جالسه والرفق بمن سأله، واستعمالَ الأخلاق الجميلة، ويتجافى عن الأخلاقِ الدنية.

فأما أخلاقه مع مُجالسيه: فصبورٌ على من كان ذهنُه بطيئًا عن الفهم حتي يفهم عنه، صبورٌ على جفاء من جهل عليه حتى يرده بحلم، يؤدبُ جلساءه بأحسن ما يكون من الأدب، لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم، ويأمرهم بالإنصاتِ مع الاستماع إلى ما ينطق به من العلم، فإن تخطَّى أحدهم إلى خُلُقٍ لا يَحسُن بأهل العلم، لم يَجْبَهْهُ، أي يقابله في وجهه على جهة التبكيت له.

ولكن يقول:"لا يحسُنُ بأهل العلم والأدب كذا وكذا، وينبغي لأهل العلم أن يتجافوا عن كذا وكذا"، فيكون الفاعلُ لخُلُقٍ لا يَحسُنُ قد عَلِم أنه المراد بهذا، فيبادِرُ [إلى إصلاح الخلل] برفقِهِ به ولين.

إن سأله منهم سائلٌ عما لا يعنيه رده عنه، وأمره أن يسأله عما يعنيه، فإذا عَلِم أنهم فقراء إلى علم قد غفلوا عنه أبداه إليهم، وأعلمهم شدة فقرهم إليه.

لا يُعنف السائل بالتوبيخ القبيح فيُخجله، ولا يزجره فيضع من قدره، ولكن يبسُطُه في المسألة ليحبُرَه فيها، وقد علم بُغيته عما يعنيه، وبحثه على طلب علم الواجبات من علم أداء فرائضه واجتناب محارمه.

يُقبِلُ على من يعلم أنه محتاجٌ إلى علم ما يسأل عنه، ويتركُ من يعلمُ أنه يريد الجدل والمراء.

ويقتربُ عليهم ما يخافون بُعدَه بالحكمة والموعظة الحسنة.

يسكتُ عن الجاهل حلمًا، وينشر الحكمة نصحًا.

فهذه أخلاقه لأهل مجلسه وما شاكل هذه الأخلاق.

وأما ما يستعملُ مع من يسأله عن العلم والفتيا، فإن من صفته إذا سأله سائلٌ عن مسألة؛ فإن كان عنده علمٌ أجاب، وجعل أصله أن الجواب من كتابٍ أو سُنةٍ أو إجماع.

• فإذا أُوردت مسألةٌ قد اختلف فيها أهل العلم؛ اجتهد فيها، فما كان أشبه بالكتاب والسنة والإجماع، ولم يخرج به عن قول الصحابة وقولِ الفقهاء بعدهم: قال به إذا كان موافقًا لقول بعض الصحابة وقولِ بعض أئمة المسلمين قال به.

• وإن كان رآه مما يخالفُ به قولَ الصحابة وقولَ فقهاء المسلمين - حتى يخرج عن قولهم- : حتى ينكشف له الحق، ويسأل مولاه أن يوفقه لإصابة الخير والحق.

• وإذا سُئل عن علمٍ لا يعلمُه، لم يستح أن يقول: (لا أعلم).

• وإذا سُئل عن مسألة، فعَلِم أنها من مسائل الشغب، ومما يورثُ الفتن بين المسلمين، استعفى منها، ورد السائل إلى ما هو أولى به، على أرفقِ ما يكون.

• وإن أفتى بمسألة، فعلم أنه أخطأ؛ لم يستنكِفْ أن يرجع عنها.

• وإن قال قولًا فرد عليه غيره -مما هو أعلم منه أو مثلُه أو دُونَه-، فعَلِم أن القول كذلك، ورجع عن قوله، وحَمِدَه على ذلك، وجزاه خيرًا .

• وإن سُئل عن مسألةٍ اشتبه القولُ عليه فيها قال: "سلُوا غيري"، ولم يتكلف ما لا يتقرر عليه.

• ويحذَرُ من المسائل المحدثات في البدع، لا يُصغي إلى أهلها بسمعه، ولا يرضى بمجالسة أهل البدع، ولا يماريهم.

• أصلُه الكتاب والسُّنةُ وما كان عليه الصحابة ومن بعدهم من التابعين، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، ويأمرُ بالاتباع، وينهى عن الابتداع.

• لا يجادلُ العلماء ولا يُماري السفهاء.

• هَمُّه في تلاوة كلام الله الفهم، وفي سُنن رسول الله ﷺ الفقه؛ لئلا يُضيّعَ ما لله عليه، ولِيعلمَ كيف يتقرب إلى مولاه، مذكِّرٌ للغافل، معلِّمٌ للجاهل، يضعُ الحكمة عند أهلها، ويمنعها من ليس بأهلها، مَثَلُه مثل الطبيب؛ يضع الدواء بحيث يعلمُ أنه ينتفع.

فهذه صفته، وما يشبهُ هذه الأخلاق الشريفة-إذا كان الله ﷻ قد نَشر له الذِّكر بالعلم في قلوب الخلق- فكلما ازداد علمًا ازداد لله تواضعًا، يطلبُ الرفعة من الله ﷻ، مع شِدة حذره من واجب ما يلزمه من العلم.

(٢٣) صفته مناظرته إذا احتاج إلى مناظرة

اعلموا رحمكم الله، ووفقنا وإياكم للرشاد أن من صفة هذا العالِم العاقل الذي فقَّهه الله في الدين، ونفعه بالعلم: ألا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي.

وذلك [قد] يحتاجُ في وقتٍ من الأوقات إلى مناظرة أحدٍ من أهل الزيغ، ليدفع بحقه باطل من خالف الحق، وخرج عن جماعة المسلمين، فتكون غلبتُه لأهل الزيغ تعودُ بالبركة على المسلمين، على الاضطرار إلى المناظرة -لا على الاختيار-؛ لأن من صفة العالم العاقل ألا يجالس أهل الأهواء، ولا يجادلهم، فأما في العلم والفقه وسائر الأحكام فلا، لأن أغلبها لا يحتاج إلى مجادلة ونقاش، والآخر بها خلاف معتبر، لا بأس به وهو بالنقاش العلمي المهذب فيها، وما دامت الأدلة تحتمل الأقوال-وإن كان بعضها أقوى من بعض عند كل فريق- فلا يحلُّ اعتراض كل فريق على الآخر بصورة خارجةٍ عن نطاق الضوابط الشرعية، وإذا انفصلت الجلسة وكل واحد من المناقشين مقتنعٌ تمامًا بما ذهب إليه، فلا عدوان عليه ولا طعن فيه، ولم يخرج بذلك عن الصلاح والتقوى؛ بل هذا هو الواجب عليه أن يعمل بما ترجح لديه، فالسفهاء من إذا قل عنده الأدب العلمي، فشنوا، وطعنوا، ونفروا، فهذا مسلك السفهاء -لا العلماء- هدانا الله لصبر وحلم النقاش دون تعنت.

• فإن قال قائل: أنا أحتاج إلى علمِ مسألةٍ قد أُشكل عليه معرفتُها - لا خلاف للعلماء فيها- لا بد له أن يجالسَ العلماء ويناظرهم حتى يعرف القول فيها على صحته، وإن لم يناظر لم تَقْوَ معرفتُه؟

• قيل له: بهذه الحجة يدخل العدوُّ على النفس المتبعه للهوى، فيقول: إن لم يُناظِر ويجادل لم تَفَقَه، فيجعل هذا سببًا للجدال والمراء المنهي عنه، الذي يُخالف منه سوءُ عاقبته، الذي حذرنا منه النبي ﷺ والعلماء من أئمة المسلمين.

روي عن النبي صلى الله عليه أنه قال: "من ترك المراءَ وهو صادقٌ، بنى الله له بيتًا في الجنة ". (رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهم)

وعن مسلم بن يَسَار، أنه كان يقول: "إياكم والمراء؛ فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطانُ زلَّته ".

وعن الحسن قال: "ما رأينا فقيهًا يُماري".

وقال أيضًا : "المؤمن يُداري ولا يُماري، ينشر حكمة الله، فإن قُبلت حَمِدَ الله، وإن رُدَّت حَمِدَ الله ".

ورُوي عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: «إذا أحببتَ أخًا فلا تُمارِه، ولا تُشارَّه -أي تخاصمه-، ولا تمازِحْه».

وعن أبي أُمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "ما ضلَّ قومٌ بعد هدًى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل". (رواه أحمد والترمذي والألباني وصححه الألباني)

فالمؤمن العالِمُ العاقل يخافُ على دينه من الجدال والمراء.

• فإن قال قائل: فما يصنعُ فيما قد أُشكل عليه؟

• قيل له: إذا كان كذلك، وأراد أن يستنبط علم ما أُشكل عليه، قصد إلى عالِم.. ممن يعلم أنه يُريد بعلمه الله، ممن يرتضي علمه وفهمه وعقله، فذاكَره مذاكرةَ من يطلب الفائدة، وأعلمه أن مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق، وليست مناظرة مُغالِب.

• ثم ألزم نفسه الإنصاف له في مناظرته ، وذلك أنه واجبٌ عليه أن يُحبَّ صواب مُناظِره، ويكره خطأه، كما يحبُّ ذلك لنفسه، ويكرهُ له ما يكره لنفسه.

• ويُعلِمه –أيضًا-: إن كان مرادُك في مناظرتي أن أُخطئ الحق، وتكون أنت المصيب، ويكون أنا مرادي أن تُخطئ الحق وأكون أنا المصيب، فإنَّ هذا حرامٌ علينا فِعلُه؛ لأن هذا خُلُقٌ لا يرضاه الله منا، وواجبٌ علينا أن نتوب من هذا

• فإن قال: فكيف نتناظر ؟!

• قيل له: مناصحةً.

• فإن قال: كيف المناصحة؟

• أقول له: لما كانت مسألةٌ فيما بيننا؛ أقول أنا: إنها حلال، وتقول أنت: إنها حرام، فحُكمُنا جَميعًا أن نتكلم فيها كلامَ من يطلب السلامة، مرادي أن ينكشف لي على لسانك الحق، فأصيرَ إلى قولك، أو ينكشف لك على لساني الحق، فتصيرَ إلى قولي مما يوافق الكتاب والسنة والإجماع، فإن كان هذا مرادَنا رجوت أن تُحمَدَ عواقبُ هذه المناظرة، ونوفق

للصواب، ولا يكونُ للشيطان فيما نحن فيه نصيب.

• وفي صفة هذا العالِم العاقل، إذا عارضه في مجلس العلم والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرة للجدل والمراء والمغالبة، لم يَسَعْه مناظرته؛ لأنه قد علم أنه إنما يريد أن يدفع قوله، وينصر مذهبه، ولو أتاه بكل حُجةٍ، مِثلُها يجبُ أن يقبلها، لم يقبل ذلك، ونَصر قوله.

• ومن كان هذا مراده لم تُؤمن فتنته، ولم تُحمد عواقبه.

ويقال لمن مرادُه في المناظرة المغالبةُ والجدل: أخبرني إذا كنتُ أنا حجازيًّا، وأنت عراقيًّا، وبيننا مسألة علة، مذهبي يقول: إنها حلال، ولو مذهبك يقول: إنها حرام، فسألتني المناظرة لك عليها، وليس في مناظرتك الرجوعُ عن قولك، والحق عندك أن أقول فيها قولك، وكان عندي أنا أن أقول(فيها بقولي) وليس مرادي في مناظرتي الرجوع عما هو عندي، وإنما مرادي أن أرد قولك، ومرادُك أن ترد قولي، فلا وجه لمناظرتنا، فالأحسن بنا السكوت على ما تعرف من قولك، وعلى ما أعرف من قولي، وهو أسلمُ لنا، وأقرب إلى الحق الذي يجيب أن نستعمله.

فإن قال: وكيف ذلك ؟!

قيل: لأنك تريدُ أن أخطئ الحق -وأنت على الباطل- ولا أوفَّق للصواب، ثم تُسَرُّ بذلك، وتبتهجُ به، ويكون مرادي فيك كذلك، فإذا كنا كذلك، فنحن قومُ سوء، لم نوافق للرشاد، وكان العلمُ علينا حُجةً، وكان الجاهل أعذرَ منا.

وأعظم من هذا كله: أنه ربما احتج أحدهما بسُنةِ رسول الله ﷺ على خصمه، فيردها عليه بغير تمييز، كلُّ ذلك يخشى أن تنكسر حُجته، حتى إنه لعله أن يقول بسُنة رسول الله ﷺ ثابتة، فيقول: "هذا باطل، وهذا لا أقول به" فيردُّ سنة رسول الله ﷺ برأيه بغير تمييز.

ومنهم من يحتجُّ في مسألةٍ بقول صحابي، فيردُّ عليه خصمُه ذلك، ولا يلتفتُ إلى ما يَحتجُّ عليه، كل ذلك نصرةٌ منه لقوله، لا يبالي أن يردَّ السُّنن والآثار.

ومن صفة الجاهل: الجدل، والمراء، والمغالبة، نعوذ باللهِ ممن هذا مراده.

ومِن صفة العالِم: العقل، والمناصحة في مناظرته، وطلب الفائدة لنفسه ولغيره، كثَّر اللهُ في العلماء مثل هذا، ونفعه بالعلم، وزينه بالحلم.

(٢٤) أخلاقه ومعاشرته لسائر الخلق

من كانت صفاتُه في علمه ما تقدم ذكرُنا له من أخلاقه -والله أعلم-: أن يأمن شرَّه مَن خالطه، ويأمل خيره من صاحبه، لا يؤاخِذُ بالعثرات، ولا يُشِيعُ الذنوبَ من غيره، ولا يقطعُ بالبلاغات، ولا يُفشي سرَّ من عاداه، ولا ينتصرُ منه بغير حق، ويعفو ويصفحُ عنه، ذليلٌ للحق، عزيزٌ عن الباطل، كاظمٌ للغيظ عمن آذاه، شديدُ البُغض لمن عصى مولاه، يجيبُ السفيهَ بالصمت عنه، والعالِمَ بالقبولِ منه، لا مداهنٌ، ولا مشاحنٌ، ولا مختال ولا متكبر، ولا حسود، ولا حقود، ولا سفيه، ولا جافٍ، ولا فظ، ولا غليظ، ولا طعان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سباب.

يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه، ونهاه عما يكره مولاه، ويُخالق بالجميل من لا يأمن شرَّه، إبقاءً على دينه.

سليمُ القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسنُ الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر، لا يُجيبُ زوال النعم عن أحدٍ من العباد، يُداري جَهْلَ من عامله برفقه، إذا تعجَّب من جهل غيره ذَكَر أن جَهْلَه أكثرُ بينه وبين ربه ﷻ، لا يُتوقَّعُ له بائقة، ولا يُخاف منه غائلة، الناسُ منه في راحة، ونفسُه منه في جهد.

(٢٥) أخلاقه وأوصافه فيما بينه وبين ربه

جَميعُ ما تقدم ذِكرُنا له -مما ينبغي للعالم أن يستعملَ من الأخلاق الشريفة- كلُّها تجري له بتوفيق من مولاه الكريم، ومن جرى له التوفيقُ بما ذكرنا كان استعمالُه للأخلاق الشريفة فيما بينه وبين ربه ﷻ، أعظم شأنًا مما ذكرتُ، مما قد أوصله مولاه الكريمُ إلى قلبه، يُمتِّعه بها شرفًا له بما خصَّه من علمه، إذ جعله وارث الأنبياء، وقُرَّةَ عين الأولياء، وطبيبًا لقلوب أهل الجفاء.

- فمن صفته:

أن يكون لله شاكرًا، وله ذاكرًا، دائم الذكر بحلاوةِ حب المذكور، فنَعَّم قلبه بمناجاة الرحمن، يَعُدُّ نفسه -مع شدة اجتهاده- خاطئًا مذنبًا، ومع الدَّأبِ على حُسن العمل مقصِّرًا، لجأ إلى الله ﷻ فقوى ظهره، ووَثِق بالله فلم يخف غيره، مستغنٍ بالله عن كل شيء ومفتقرٌ إلى الله في كل شيء، أُنسُه باللهِ وحده، وحْشتُه ممن يشغلُه عن ربه، إن ازداد علمًا خاف توكيدَ الحجة، مشفقٌ على ما مضى من صالح عمله أن لا يُقبل منه، هَمُّه في تلاوة كلام الله الفهمُ عن مولاه، وفي سُنن رسول الله ﷺ الفقه، لئلَّا يُضيِّعَ ما أُمر به، متأدبٌ بالقرآن والسنة، لا ينافسُ أهل الدنيا في عزِّها، ولا يجزعُ من ذلِّها، يمشي على الأرض هونًا بالسكينة والوقار، مشغلٌ قلبُه بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبُه عن ذكر الله فمصيبةٌ عنده عظية، وإن أطاع الله ﷻ بغير حضور فهم في خسران عنده مبين، يذكرُ الله مع

الذاكرين، ويعتبرُ بلسان الغافلين، عالمٌ بداء نفسه، ومتهمٌ لها في كل حال، اتسع في العلوم، فتراكمت على قلبه الفُهوم، فاستحى من الحي القيوم، وشُغلُه بالله في جميع سعيه متصل، وعن غير منفصل.

فإن قال قائل: فهل لهذا النعت الذي نَعتَّ به العلماء ووصفتَهم به أصلٌ في القرآن أو السنة، أو أثرٌ عمن تقدم؟

قيل له: نعم، وسنذكر منه ما يدلُّ على ما قلنا إن شاء الله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء١٠٧ : ١٠٩]

أفلا ترى -رحِمك الله- كيف وصَف العلماءَ بالخشية والطاعة والتذلُّلِ فيما بينه وبينهم؟!

• قال عبد الأعلى التَّيمي "من أُوتيَ من العلم ما لا يُبكِّيه، فخليقٌ ألا يكون أُوتيَ علمًا ينفعه؛ وقرأ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

• وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: "منهومانِ لا يشبعان: صاحبُ العلم، وصاحبُ الدنيا، ولا يستويان؛ أما صاحبُ العلم، فيزدادُ رضًى لله، وأما صاحب الدنيا، فيزدادُ في الطغيان.

ثم قرأ عبد الله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، ثم قرأ للآخر: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق:٦- ٧]

• وعن وهب بن مُنبّهٍ قال: "بلغ ابن عباس ﷺ عن مجلسٍ كان في ناحيةِ بني سهم، يجلسُ فيه ناسٌ من قريش يختصمون، قترتفعُ أصواتهم، فقال ابن عباس ﷺ: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وفقنا، فقال بن عباس ﷺ: أخبِرْهم عن كلام الفتى الذي كلَّم به أيوبَ في حاله. فقلت: قال الفتى: يا أيوب، أمَا كان في عظمة الله، وذِكر الموت ما يَكِلُّ لسانك، ويقطعُ قلبك! ويكسرُ حُجَّتك؟ يا أيوب، أما علمتَ أن لله عبادًا أسكتتهم خشيةُ الله من غير عِيٍّ ولا بَكَم، وإنهم هم النبلاءُ الفصحاءُ الطُّلَقاءُ الألبَّابُ العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذَكروا عظمة الله انقطعت قلوبهم، وكلَّت ألسنتهم، وطاشت عقولُهم وأخلاقهم فرقًا من اللهِ وهيبةً له، وإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله ﷻ بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرْضَون له القليل، يَعُدُّون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين، وإنهم لأنزاهٌ أبرار، ومع المضيّعين المفرّطين، وإنهم لأكياسٌ أقوياء، ناحلون ذائبون يراهم الجاهل فيقول "مرضى"، وليسوا بمرضى! "قد خُولطوا" وقد خالط القومَ أمرٌ

عظيم وهو خوفهم من الله تعالى ومما أمامهم من أهوال .
فهذه الأخبار تدلُّ على ما وصفنا به العلماء والفقهاء.

فإن قال قائل: ولِمَ داخَل العلماء هذا الإشفاقُ الشديد؟ وخافوا من عِلمهم هذا الخوف كله؟!

قيل له: عَلِموا أن الله ﷻ يسألُهم عن علمهم: ما عملوا فيه؟ فجعلوا مساءلة الله نُصبَ أعينهم، فألزموا أنفسهم شدةَ الحذر، وأخذوا بالثقةِ في كل أمرهم.

إن قال قائل : فإنَّ العلماء يُسألون عن علمهم: نا ما عملوا فيه؟!

قيل: نعم.

فإن قال: فاذكُرْ من ذلك ما إذا سمعه العالِمُ انتبه من رقْدته، وأَخذ نفْسه بلزوم أخلاق من ذكرتَ، والله موفِّقُنا.

قيل: نعم، إن شاء الله.

(٢٦) سؤال الله لأهل العلم عن علمهم ماذا فعلوا فيه؟ !

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خِصال: عن عُمره فيما أفناه؟ وعن شبابهِ فيما أبلاه؟ وعن مالِه: مِن أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه؟! وعن عِلمِه: ماذا عمل فيه؟!"

• وعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "لا تزولُ قدما ابن آدم يومَ القيامة حتى يُسأل عن خَمْسٍ خصال: عن عمرِك فيما أفنيتَ؟! وعن شبابك فيما أبليتَ؟! وعن مالك: من أين اكتسبتَ وفيم أنفقتَ؟! وما عملتَ فيما علِمت؟!"

• وعن عبد الله بن عُكيم قال: رأيت ابن مسعود في هذا المسجد _ يعني مسجد الكوفة_ بدأ باليمين قبل أن يحدثنا؛ فقال: "والله ما منكم من أحدٍ إلا ويخلو به ربُّه كما يخلُو أحدُكم بالقمر ليلةَ بدْر، ثم يقول: يا ابن آدم، ما غرَّك بي؟! _ثلاث مِرار_ ماذا أجبتَ المرسلين؟! كيف عملتَ فيما علمت؟!"

• وقال أبو الدرداء ﷺ: "إن أخوفَ ما أخافُ_إذا وقفت على الحساب_ أن يقال: قد علمتَ، فماذا عملتَ فيما علمت؟!"

• وقال ﷺ: "لا تكونُ عالمًا حتى تكون بالعلم عاملًا"

• وقال عطاءٌ: "كان فتًى يختلفُ إلى أمِّ المؤمنين، فيسألها وتحدِّثُه، فجاء ذات يوم يسألها، فقالت: "يابني، هل عمِلتَ بما سمعت؟ فقال: لا والله _يا أُمَّهْ_ قالت: يا بني، ففيمَ تستكثرُ مِن حُجج الله علينا وعليك؟!"

• وعن أبي الدرداء ﷺ قال: "ويلٌ للذي لا يعلمُ مرة، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعمل سبعَ مرات"

فمن تدبر هذا، أشفقَ مِن علمه أن يكون عليه _ لا له_ فإذا أشفق مقت نفسه، وبان بأخلاقِه الشريفة التي تقدَّم ذكرُنا لها، والله الموفق لنا ولكم إلى الرشاد من القول والعمل.

كيفية الطلب والتلقي

(٢٧) كيفية الطلب ومراتبه

"من لم يتقن الأصول، حرم الوصول"، و"من رام العلم جملة، ذهب عنه جملة"، وقيل أيضًا: "ازدحام العلم في السمع مَضَلة للفهم"

وعليه؛ فلا بد من التأصيل والتأسيس لكل فنٍّ تطلبه، بضبط أصله ومختصره علىٰ شيخ متقن، لا بالتحصيل الذاتي وحده، وآخذًا الطلب بالتدريج.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢]

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١]

وقد قيل: "من فاته الأصول حرم الوصول" فالأصول هي العلم، والمسائل فروع كأصل الشجرة وأغصانها، إذا لم تكن الأغصان علىٰ أصل

جيد فإنَّها تذبل وتهلك.

فلا بد أن يبني الإنسان علمه على أصول وأدلة صحيحة.

• إذا أراد الإنسان أن يأخذ العلمِ جميعًا فإنه يفوته العلم جميعًا؛ لأن هذا لا يمكن أبدًا، لا بد أن تأخذ العلم شيئًا فشيئًا، كسلم تصعد إليه من الأرض إلىٰ السطح، ليس العلم مأكولًا كتبت فيه العلوم، فتأكله. لا، العلم يحتاج إلى مرونة، وصبر، وثبات، وتدرج.

• كثرة ما تسمع من العلوم توجب أن تضل في فهمك، فالإنسان إذا ملأ سمعه أو ملأ بصره بما يقرأ ربما تزدحم العلوم عليه، ثم تشتبك، ويعجز عن التخلص منها.

فالتأصيل لا بد أن يكونَ علىٰ شيخ متقن، وليس شيخًا أعلى منك بقليل، لأن بعض الناسِ إذا رأىٰ طالبًا من الطلبة يتميز عنه بشيء من التميز جعله شيخًا، وعنده شيوخ أعلم من هذا بكثير، لكن يجعل هذا الصغير شيخه؛ بل اختر المشايخ ذوي الإتقان.

ونضيف إلى جانب الإتقان، الأمانة، لأن الإتقان قوة، والقوة لا بد فيها من أمانة:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]

• لا تأخذ العلم بالتحصيل الذاتي، يعني أن تقرأ الكتب فقط! دون أن يكون لك شيخ معتمد، ولذلك قيل: من دليله كتابه فخطؤه أكثر من صوابه، أو غَلَب خطؤه صوابه، فهذا هو الأصل، فالأخذ عن عالم أو شيخ

له فائدتين عظيمتين:

- الفائدة الأولى: قصر المدة.
- الفائدة الثانية قلة التكلف.

وذلك أحرى بالصواب؛ لأن هذا الشيخ عالم، متعلم، ومرجح ومفهم، فيعطيك الشيء ناضجًا، ويشجعك على المراجعة والمطالعة -إذا كان عنده شيء من الأمانة-.

فأمامك أمور لا بد من مراعاتها في كل فن تطلبه:

- حفظ مختصر فيه.
- ضبطه على شيخ متقن.
- عدم الاشتغال بالمطوَّلات وتفاريق المصنَّفات قبل الضبط لأصله.
- لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب، فهذا من باب الضَّجَر.
- اقتناص الفوائد والضوابط العلمية.
- جمع النفس للطلب والترقِّي فيه، والاهتمام والتحرُّق للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه، حتى تفيض إلى المطولات بسابلةٍ مُوثقةٍ.

(٢٨) تلقي العلم عن الأشياخ

اختصار الطريق، بدلًا من أن يذهب فيقلب الكتب وينظر ما هو القول الراجح وما سبب رجحانه؟ والضعيف وسبب ضعفه؟ فبدل من هذا يمد إليه المعلم هذه لقمة سائغة يقول: اختلف العلماء في كذا، علىٰ قولين، أو ثلاثة، أو أكثر، والراجح كذا، والدليل كذا، وهذا لا شك أنه نافع لطالبِ العلم.

• وهذا أفضل لأنه أسرع في إدراكه، فإذا كان يقرأ علىٰ عالم، فإنه يُدرك أسرع مما لو ذهب يقرأ في الكتب؛ لأنه إذا ذهب يقرأ يردد العبارة أربع مرات، خمس مرات لا يفهمها، وربما فهمها أيضًا علىٰ وجه خطأ غير صحيح.

• وبهذا يكون هناك رابطة بين الطالب ومعلمه، فيكون ارتباط علم من الصغر إلى الكبر، فمن الواجب أن يختار الإنسان من العلماء من هو ثقة. أمين قوي، يعني: عنده علم، وإدراك، ليس علمه سطحيًّا، وعنده أمانة، وكذلك أيضًا إذا كان عنده عبادة، فإن الطالب يقتدي بمعلمه.

(٢٩) رعاية حرمة الشيخ

بما أن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب، بل لا بد من شيخ تتقن عليه مفاتيح الطلب، لتأمَنَ من العثار والزلل؛ فعليك إذن بالتحلي برعاية حُرمته؛ فإن ذلك عنوان النجاح.

وهذه من أهم الآداب لطالب العلم، أن يعد شيخه معلمًا مربيًا، معلمًا يلقي إليه العلم، مربيًا يلقي إليه الآداب، والتلميذ إذا لم يثق بشيخه في هذين الأمرين، فإنه لن يستفيد منه الفائدة المرجوة.

فمثلًا: إذا كان عنده شك في علمه، كيف ينتفع به؟! إن أي مسألة ترد علىٰ لسان الشيخ لن يقبلها حتىٰ يسأل ويبحث، وهذا خطأ في التقدير من وجه، وخطأ في التصرف من وجه آخر.

أما كونه خطأ في التقدير؛ فإن الشيخ المفروض فيه أنه لا يجلس للتعليم إلا وهو يرىٰ أنه أهل لذلك، وأن التلميذ أيضًا لم يأت إلىٰ هذا الشيخ إلا وهو يعتقد أنه أهل.

أما في المنهج؛ فلأن الطالب إذا سار هذا المسير، وسلك هذا المنهج سوف يبني علمه علىٰ شفا جرف هار؛ لأن نفسه قلقة، ليس واثقًا كل الثقة في هذا الشيخ الذي قرأ عليه؛ فلهذا يضيع عليه الوقت، ويضيع عليه التحصيل.

- العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب: سبق الكلام عليه، وأنه لا بد من القراءة على شيخ، بل شيخ متقن، تتقن عليه مفاتيح الطلب، وتأمن من

العثار والزلل، فعليك إذن بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتفوق.

- فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف.

فليس من الآدب أن تمر بشيخك ولا تسلم عليه، بل إذا حاذىٰ شيخه مرَّ مرَّ السحاب، وعجل ليدرك، هذا ليس من الآداب، نحن نذكر أننا لما كنا طلابًا، إذا رأينا شيخنا من بعيد نقف ونسلم، ومثلا: إذا كان دخول المسجد نمكنه أن يدخل قبلنا، وأنا شخصيًّا ما أريد هذا، أن تقفوا لي وأدخل قبلكم، فأنا مسامح، لكن أريد السلام الذي أمر به الرسول بإفشائه، كذلك بعض الناس يمر مع زميله منكم أنتم أيضًا الطلبة يمر مع زميله، ثم يقنّع برأسه هكذا كأنه يزلق في الماء. هذا غلط أيضًا.

أعجبني فعل أحدهم، كان يمر من الصف خارجًا من المسجد، ولا يمر بواحد من الطلبة ولو كان بعيدًا إلا سلم عليه، هذا طيب. لكن كونه يمشي إلىٰ جنبه، هذا جاء من اليمين، وهذا جاء من اليسار، ثم يتلاقيان أنا في نفسي أنه لا يسلم أحدهما علىٰ الآخر؛ لأني لا أسمع صوتًا، لا أرىٰ حركة، وهذا غلط، والله غلط.

- فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه والتحدث إليه.

فلا تمد رجليك بين يديه؛ لأن هذا سوء أدب، ولا تجلس متكئًا، هذا أيضًا سوء أدب، ولا سيما في مكان الطلب، أما إذا كانت في مكان جلوس عادي، فهذا الأمر أهون، كذلك أيضًا في التحدث إليه، لا تتحدث إلىٰ شيخك وكأنما تتحدث مع قرينك، لا. هذا لا يستقيم؛ تحدث إليه تحدث

الابن إلىٰ أبيه باحترام، وتواضع، لكن انظروا يا جماعة ترىٰ هذا ما هو بالنسبة لي معكم، أنا ما يهم خاطبوني كأني أحد أقرانكم ما يهم.

لكن "بس" الشيء الذي لا بد منه، لا بد منه.

- "حسن السؤال" :

فإذا هممت أن تسأل فلا بد من الاستئذان، وأن تسأل بهدء ورفق

- "حسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب" :

فلا تتصفح الكتاب بقوة، فلا بد إذا تصفحت الكتاب أمامه أن يكون ذلك برفق؛

أولًا: تأدب مع الشيخ.

ثانيًا: رفقًا بالكتاب؛ لئلا يتمزق؛ ولهذا قال" أمامه ومع الكتاب ".

- "ترك التطاول والمماراة أمامه":

والتطاول في الواقع ليس أمرًا محسوسًا، مدركًا بالحس الظاهر..، لكن النفس تشعر بأن هذا السائل متطاول، وقد يكون هذا لسوء ظن، وقد يكون لفراسة، لكن التطاول معروف، كذلك المماراة وهي: أن يجابه الشيخ، ثم إذا أجاب قال: وإذا كان كذا، وإذا أجاب، قال: وإذا كان كذا، يسألك عن المسألة من المسائل تجيبه، ثم يأتي بمسألة فرضية تجيبه علىٰ هذا الفرض؛ تجيب بفرض آخر أضيق من الأول، هذه مماراة ما لها داع.

- "عدم التقدم عليه بكلام أو مسير" :

فالبعض يجيب قبل أن يتكلم الشيخ، فربما يسخط عليه ويقول: أتريد أن أنزل عن هذا لك؟! فليتحمل مني، فعلىٰ كل حال لا ينبغي للطالب أن يتقدم بين يدي الشيخ بكلام أو مسير أيضًا، فإذا تقدم الشيخ للخروج من المسجد، وكان حذاء الطالب عن يمين الشيخ، والطالب عن يساره خطا من أمام الشيخ ليأخذ الحذاء، هذا تقدم في المسير أم لا؟! هذا تقدم في المسير، وإعاقة لسير الشيخ، كأن يقول للشيخ: انتظر حتىٰ أعبر وأمر، هذا أيضًا ليس من الأدب الطيب.

" ولا تُكثر الكلام عنده":

إكثار الكلام عنده من سوء الأدب، لكن المجالس تختلف، إذا كان مجلس علم ومجلس جد فلا تكثر، لكن إذا كان المكان نزهة، فهذا لا بأس أن يأتي أحد يكثر الكلام، يوسع الصدر، صدر الشيخ، وصدر الحاضرين، ما فيه مانع

- "أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك":

مداخلة معناها: الشيخ يتكلم مستمرًّا في كلامه، فتأتي أنت وتدخل فيه؛ أي: في كلامه؛ لتقطع الكلام، هذا لا يصح لا في الدرس، ولا خارج الدرس؛ لأنه من سوء الأدب.

- "ولا تلح عليه في الجواب":

فإذا سأل الشيخ قال له الشيخ: انتظر، أعاد، قال: انتظر، هذا أيضًا

غلط، إذا قال: انتظر، فانتظر حتىٰ يقول هو لك: ما سؤالك، ولا تلح عليه، ولا تُكثر من السؤال، لأن بعض الناس يحب الإكثار من السؤال، وقد يكون في غير موضوع الدرس، فيقول الشيخ: إذا حضر الهرس بطل الدرس؛ لأن هذا صحيح بعض الناس يبتلون بهذا.

- "ولا تنادِهِ باسمه مجردًا":
- أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل: يا شيخي! أو: يا شيخنا! فلا تسمِّه، فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعد من غير اضطرار فهذه آداب عامة.
- "التزم بتوقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس، والإفادة به "
- "وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهم فلا يسقطه ذلك من عينك؛ فإنه سبب لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟!

فلا يجوز لك أن تسكت علىٰ الخطأ؛ لأن هذا ضرر عليك وعلىٰ شيخك، فإنك إذا نبهته علىٰ الخطأ وانتبه، أصلح الخطأ، كذلك الوهم، فينظر إلى القرائن للنصح، قد تقتضي أن تنبه في الدرس، فإذا لم نصلح الخطأ في حينه، نشر هذا العلم على خطأ. فلا بد من التنبيه في الدرس، أما إذا لم ينتبه أحد للخطأ وهو شيء هين فإن من الأليق ألا تنبه الشيخ في مكان الدرس، بل إذا خرج ومع ذلك تلتزم الأدب معه، فهذا حسب ما تقتضيه الحال من النصح في مكان الدرس أم بعده.

- واحذر أن تمارس معه ما يضجره:
- فإذا بدا لك الانتقال إلىٰ شيخ آخر، فاستأذنه في ذلك، فإنه أدعىٰ لحرمته، وأملك لقلبه في محبتك والعطف عليك.

واعلم أنه بقدر رعاية حرمته يكون النجاح والفلاح، وبقدر الفوت يكون من علامات الإخفاق.

أعيذُك بالله من صنيع الأعاجم، والطرقية، والمبتدعة الخَلَفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع؛ من لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال بالشمال عند السلام، كحال تودّد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرّخوة: سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد.

(٣٠) رأس مالك -أيها الطالب- من شيخك

القدوة بصالح أخلاقه، وكريم شمائله، أما التلقي والتلقين فهو ربح زائد، لكن لا يأخذك الاندفاع في محبة شيخك، فتقع في الشناعة من حيث لا تدري، وكل من ينظر إليك يدري، فلا تقلده بصوت ونغمة، ولا مِشْية وحَركة، وهيئة، فإنه إنما صار شيخًا جليلًا بتلك، فلا تسقط أنت بالتبعيَّةُ له في هذه.

فهذا من أهم ما يكون، إذا كان شيخك على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والشمائل الطيبة، فهنا اجعله قدوة لك، لكن قد يكون الشيخ على خلاف ذلك! أو عنده نقص في ذلك، فلا تقتدي به في هذا ولا تقل إذا صار شيخك عنده خلق سيئ فاقتديت به. تقول هكذا كان شيخي مثلًا، لأن الشيخ يكون قدوة، لكن بماذا؟! بالأخلاق الفاضلة، والشمائل الطيبة، كذلك أنت.

• "أما التلقي والتلقين، فهو ربح زائد"، فالواقع أن التلقي والتلقين هو الأصل؛ لأن التلميذ لا يأتي للشيخ من أجل أن يتعلم الأخلاق فقط، بل من أجل أن يتعلم العلم أولًا، ثم الأخلاق ثانيًا، ففي الحقيقة أن التلقي والتلقين أمران مقصودان كما أن الاقتداء به في أخلاقه أمر مقصود أيضًا، ولهذا لو سألت أي طالب علم: لماذا حضرت عند هذا الشيخ؟! فلقال: لأتلقى علمًا، ولا يقول: لأجعله قدوة لي في الأخلاق.

(٣١) نشاط الشيخ في درسه

يكون على قدر مدارك الطالب في استماعه، وجمع نَفْسِه، وتفاعل أحاسيسه مع شيخه في درسه، ولهذا فاحذر أن تكون وسيلة قطع لعلمه، بالكسل، والفتور، والاتكاء، وانصراف الذهن وفتوره.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: "حق الفائدة ألا تساقَ إلا إلى مبتغيها، ولا تُعرضَ إلا على الراغب فيها، فإذا رأىٰ المحدِّث بعض الفتور من المستمع، فليكست، فإن بعض الأدباء قال: "نشاط القائل على قدر فهم المستمع". ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب، قال: "قال عبد الله: حدِّث القوم ما رَمقوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فَتْرة، فانزعْ"

• فمن حلية طالب العلم أن يكون له همة وقوة في الاستماع إلى الشيخ، واتباع نطقه حتى ينشط الشيخ على هذا، ولا يظهر للشيخ أنه قد مل وتعب بالاتكاء تارة، أو تقليب الأوراق، وما أشبه ذلك.

ولا ينبغي للإنسان أن يلقي العلم بين الطلبة ولا بين العامة إلا وهم متشوقون له حتىٰ يكون كالغيث أصاب أرضًا يابسة فقبلته، وأما أن يُكرِه أو يفرض نفسه، فهذا أمر مرغوب عنه.

(٣٢) الكتابة عن الشيخ حال الدَّرس والمذاكرة

وهي تختلف من شيخٍ إلى آخر، فافهم.

الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة، فبعضهم سريع وبعضهم يملي إملاءً، وبعضهم لا يستحق أن يُكتب ما يقول، لكن مثل هذا قد لا يكون إنسانًا يضيع وقته في الجلوس إليه، والكلام في الشيخ يأتي الإنسان إليه ليستفيد، وفي حالة الكتابة يجب أن ينتبه الإنسان في مسألة مهمة، وهي أنه قد يفوته بعض الكلمات من حيث لا يشعر، فيكتب خلاف ما قال الشيخ.

ولهذا أدب وشرط:

أما الأدب: فينبغي لك أن تُعْلِمَ شيخك أنك ستكتب، أو كتبت ما سمعته مذاكرة.

وأما الشرط: فتشير إلىٰ أنك كتبته من سماعه من درسه.

فهذا من باب الأدب إذا كنت تريد أن تسجل فعليك إخباره، لأنه ربما لا يرضى أن تكتب أو تُسجل عنه شيئا.

(٣٣) التلقي عن المبتدع

احذر (أبا جهل) المبتدع الذي مسه زيغ العقيدة، وغَشِيَتْه سُحُبُ الخرافة، يُحَكّم الهوىٰ، ويسمّيه العقل، ويعدل عن النصِّ، وهل العقلُ إلا في النص؟!

ويستمسك بالضعيف، ويبعد عن الصحيح، ويقال لهم أيضًا: "أهل الشبهات" و "أهل الأهواء".

قال الذهبي رحمه الله: "إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث، وهات (العقل)؛ فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهاتِ الذوقَ والوجدَ، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بَشَر، أو قد حلَّ فيه، فإن جَبُنت منه فاهرُب، وإلا فاصْرَعه، وابرُكْ على صدره، واقرأ عليه آية الكرسيّ واخْنِقْه"

وعن مالك رحمه الله تعالى قال:

"لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيهٍ يعلن السفه وإن كان أروىٰ الناس، وصاحب بدعة يدعو إلىٰ هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتَّهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدِّث به".

فإنك لن تبلغ مبلغ الرجال _ صحيح العقيدة في الدين، متين الاتصال بالله، صحيح النظر، تقفو الأثر_ إلا بِهجر المبتدعة وبدعهم.

فما الحكم إذا كان الرجل مبتدعا، لكنه جيد في علم العربية، البلاغة، النحو، الصرف، فهل نجلس إليه ونأخذ منه هذا العلم الذي هو

موجود عنده، أو نهجره؟!

فالظاهر من كلام الشيخ، أننا لا نجلس إليه، لأن ذلك يوجب مفسدتين:

المفسدة الأولى: اغتراره بنفسه، فيحسب أنه على حق.

المفسدة الثانية: اغترار الناس به، حيث يتوارد عليه طلاب العلم، ويتلقون منه، والعامي لا يفرق بين علم النحو، وعلم العقيدة؛ لهذا نرى أن الإنسان لا يجلس إلى أهل الأهواء والبدع مطلقًا، حتىٰ وإن كان يجيد علم العربية والبلاغة والصرف مثلًا. فسيجعل الله له خيرًا منها؛ لأنا إذا ذهبنا إلىٰ هؤلاء وترددنا إليهم فلا شك أنه يوجب غرورهم واغترار الناس بهم.

فقد كان السلف رحمهم الله تعالىٰ يحتسبون الاستخفاف بهم، وتحقيرهم، ورفض المبتدع وبدعته، ويحذرون من مخالطتهم، ومشاورتهم، ومؤاكلتهم، فلا تتراءى نارُ سنِّيٍّ ومبتدع.

• وكان من السلف من لا يصلي على جنازة مبتدع، فينصرف، وقد شوهد من العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩) رحمه الله انصرافه عن الصلاة على مبتدع.

• وكان من السلف مَن ينهىٰ عن الصلاة خلفهم، وينهىٰ عن حكاية بدعهم؛ لأن القلوب ضعيفةٌ، والشُّبَهَ خطافةٌ.

• وكان سهل بن عبد الله التُّستري لا يرىٰ إباحة الأكل من الميتة للمبتدع عند الاضطرار؛ لأنه باغ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضطُرَّ غَيرَ باغٍ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] فهو باغٍ ببدعته.

• وكانوا يطردونهم من مجالسهم، كما في قصة الإمام مالك رحمه الله مع من سأله عن كيفية الاستواء، وفيه -بعد جوابه المشهور-: "أظنك صاحب بدعة"، وأمر به فأخرج.

• وأخبار السلف متكاثرة في النُّفرة من المبتدعة، وهجرهم، حَذرًا من شرهم، وتحجيمًا لانتشار بدعهم، وكسرًا لنفوسهم حتىٰ تضعف عن نشر البدع؛ ولأن في معاشرة السنيِّ للمبتدع تزكية له لدىٰ المبتدئ والعامِّيّ.

والعاميُّ : بيد من يقوده غالبًا.

• ونرى في كتب المصطلح، وآداب الطلب، وأحكام الجرح والتعديل الأخبار في هذا.

فيا أيها الطالب، كن سلفيًّا على الجادة، واحذر المبتدعة أن يفتنوك؛ فإنَّهم يوظِّفون للاقتناص، والمخاتَلَةِ سُبلًا، يفتعلون تعبيدها بالكلام المعسول، وهو (عسل) مقلوب، وهطولِ الدمعة، وحُسن البزة، والإغراء بالخيالات، والإدهاش بالكرامات، ولحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف. وما وراء ذلك إلا وَحَمُ البدعة، ورَهَجُ الفتنة، يغرسها في فؤادك، ويعتملك في شراكه، فوالله لا يصلح الأعمىٰ لقيادة العميان وإرشادهم.

أما الأخذ عن علماء السنة فالْعَقِ العَسَلَ ولا تَسَلْ.

وفقك الله لرُشْدِكَ، لتنهل من ميراث النبوة صافيًا، وإلا فليبْكِ على الدين من كان باكيًا!

وما ذكرته لك هو في حال السعه والاختيار، أما إن كنت في دراسة نظامية لا خيار لك فيمن يعلمك فاحذر منه، مع الاستعاذة من شرِّه، واليقظة من دسائسه، على حد قولهم "اجن الثمار، وألق الخشبة في النار"

ولا تتخاذل عن الطلب، فأخشىٰ أن يكون هذا من التَّولِّي يوم الزحف، فما عليك إلا أن تتبيَّن أمرَه، وتتقي شرَّه، وتكشف سِتْرَه.

والمبتدعة إنما يَكْثرون ويَظْهرون، إذا قل العلم، وفشا الجهلُ، وفيهم يقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: "فإن هذا الصنف يكثرون، ويظهرون، وإذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يُظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال، ويكشف ما في خلافها من الإفك، والشرك والمحال..."

هذا إذا اشتد ساعدك في العلم، أما إذا لم يكن عندك العلم الوافي في رد البدعة، فإياك أن تجادل؛ لأنك إذا هُزمت وأنت سُني؛ لعدم قدرتك علىٰ مدافعة هذا المبتدع، فهو هزيمة للسنة، ولذلك لا نرىٰ أنه يجوز للإنسان أن يجادل مبتدعًا، إلا وعنده قدرة علىٰ مجادلته، وهكذا أيضًا مجادلة غير المبتدعة أعني الكفار، لا نجادلهم إلا ونحن نعلم أننا علىٰ يقين من أمرنا، وإلا كان الأمر عكسيًّا، بدل أن يكون انتصارًا لنا، ولما نحن عليه من دين وسنة. يكون الأمر بالعكس، ومن ذلك -يعني قوة الحجة- أن يكون معك من يساعدك. كما قال الشاعر:

لا تخاصم بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويّا

إذا صار معك أحد فإن حجتك سوف تقوىٰ؛ لأنه يقمعه من الخد الأيمن، وأنت تقمعه من الخد الأيسر، حتىٰ يضيع.

(٣٤) فصل في: أدب الزمالة

كما أن العرق دسَّاسٌ، فإن "أدب السوء دساس" إذ الطبيعة نقَّالة، والطِّباع سرَّاقة، والناس كأسراب القطا مجبولون علىٰ تشبه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرة من كان كذلك، فإنه العَطَبُ، "والدفع أسهل من الرفع".

وعليه؛ فتخير للزمالة والصداقة من يعينك على مطلبك، ويقربك إلىٰ ربك، ويوافقك علىٰ شريف غرضك ومقصدك، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير.

فهذه الكلمات مأخوذة من قول رسول الله ﷺ: "مثل الجليس الصالح كحامل المسك، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير"

• فعليك باختيار الصديق الصالح الذي يدلك علىٰ الخير، ويبينه لك، ويحثك عليه، ويبين لك الشر، ويحذرك منه، وإياك وجليس السوء، فإن المرء على دين خليله.

وكم من إنسان مستقيم قيض الله له شيطانًا من بني آدم، فصده عن الاستقامة، وكم من إنسان جائر فاسد، يسر الله له من يدله علىٰ الخير، بسبب الصحبة، وبناء علىٰ ذلك نقول: إذا كان في مصاحبة الفاسق سبب لهدايته، فلا بأس أن تصحبه؛ تدعوه إلىٰ بيتك. تأتي إلىٰ بيته، تخرج معه للتمشي، بشرط ألا يقدح ذلك في عدالتك عند الناس، وكم من إنسان

فاسق، هداه الله تعالىٰ بما يسره له من صحبة الخير.

وقوله "الدفع أسهل من الرفع" هذه قاعدة فقهية، ذكرها ابن رجب رحمه الله في "القواعد الفقهية" أن الدفع أسهل من الرفع، وفي معناها قول الأطباء "الوقاية أسهل من العلاج"؛ لأن الدفع ابتعاد عن الشر وأسبابه، لكن إذا نزل الشر صار من الصعب أن يدفعه الإنسان.

١_ صديق منفعة.

٢_ صديق لذة.

٣_ صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما، المنفعة في الأول، واللذة في الثاني.

وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعثُ صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدىٰ كل منهما.

وصديق الفضيلة هذا "عملة صعبة" يَعِزُّ الحصول عليها.

ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك (م سنة ١٢٥هـ) قوله: "ما بقي من لذات الدنيا شيء إلا أخ أرفع مؤونة التحفظ بيني وبينه".

ومن لطيف ما يقيَّد قول بعضهم: "العزلة من غير عين العلم: زلة، ومن غير زاي الزهد: علة".

• صديق المنفعة هذا: الذي يصادقك ما دام ينتفع منك بمال أو جاه أو غير ذلك، فإذا انقطع الانتفاع، فهو عدوك، لا يعرفك ولا تعرفه، وما أكثر هؤلاء ما أكثر الذين يلمزون في الصدقات، إن أعطوا منها رضوا، وإن

لم يعطوا منها إذا هم يسخطون!

• الأول صديق لك حميم: ترىٰ أنه من أعز الناس عندك، وأنت من أعز الناس عنده، يسألك يومًا من الأيام يقول: أعطني كتابك أقرأ فيه، فتقول: والله الكتاب أنا محتاج إليه اليوم، أعطيك إياه غدًا، فينتفخ عليك، ويعاديك، هل هذا صديق!! هذا صديق منفعة. أكَّال.

• والثاني: صديق لذة. يعني: لا يصادقك إلا لأنه يتمتع بالجلوس إليك.

والمحادثات والمؤانسات والمسامرات، ولكنه لا ينفعك، ولا تنتفع منه، أنت، كل واحد منكما لا ينفع الآخر، ليس إلا ضياع وقت فقط، هذا أيضًا احذر منه، أن يضيع أوقاتك.

• والثالث: صديق فضيلة، يحملك على ما يزين، وينهاك عمَّا يشين، ويفتح لك أبواب الخير. يدلك عليه، وإذا زللت نهك علىٰ وجه لا يخدش كرامتك. هذا هو صديق الفضيلة.

طيب كلمة صديق منفعة من أوسع هذه الأقسام؛ لأن المنافع كثيرة جدًّا، فإذا رأيت هذا الرجل لا يصادقك إلا حيث ينتظر منفعتك، فاعلم أنه عدو وليس بصديق، كذلك صديق اللذة الذي يشغلك ويلهيك بالتمتع بالسهر، وإضاعة الوقت بالخروج للمنتزهات، وغير ذلك، أيضًا هذا لا خير فيه.

الذي يجب أن تعض عليه بالنواجذ هو صديق الفضيلة، يعينك علىٰ كل فضيلة، وينهاك عن كل رذيلة.

قال الإمام السعدي رحمه الله: ينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقت غنيمة يتعلم فيها القاصِر ممن هو أعلى منه، ويُعلّم العارف غير العارف، ويتطارحون المسائل النافعة، وليجعلوا همهم معقودًا على ما هُم بصدده.

وقال أيضًا: الصُّحبة في طلب العلم تجمع حقوقًا كثيرة، لأن لهم حق الأُخوة والصُّحبة، وحقوق الاحترام، لما قاموا به من الاشتغال بما ينفعهم وينفع الناس، وحق الانتماء إلى معلّمهم وأنهم بمنزلة أولاده، وحقٌّ لنفع بعضهم بعضًا.

ولهذا ينبغي ألا يَدع ممكنًا من نفع مَن يقدر علىٰ نفعه منه بتعليمه ما يجهل، والبحث معه للتَعاون على الخير، وإرشاده لما فيه نفعه.

كتاب: أخلاقُ العالِم الجاهل الْمُفتَتِن بعلمِه

قد تقدَّمت الأخبارُ عن النبي ﷺ وعن صحابته ﷺ وعن أئمة المسلمين -رحمهم الله- بصفةِ علماءَ في الظاهر لم ينفعهم الله بالعلم، ممن طلبه للفخر والرياءِ والجدل والمراء، وتأكَّلَ به الأغنياء، وجالس به الملوك وأبناء الملوك، لينال به الدنيا، فهو ينسبُ نفسَه إلى العلماء، وأخلاقُه أخلاقُ أهل الجهل والجفاء، فتنةٌ لكل مفتون، لسانُه لسان العلماء، وعملُه عمل السفهاء.

فإن قال قائل: فاذكر الأخبار في ذلك، لنحذرَ ما حذرتَنا.

• عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعلَّم علمًا لغير الله، أو أراد به غير وجه الله، فليتبوَّأ مَقعده من النار".

(رواه الترمذي والنسائي وغيرهم)

• وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تتعلَّموا العلم لتباهُوا به العلماء، ولا لِتُماروا به السفهاء، ولا لتخيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار".

(رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي وصححه الألباني)

• وعن كعب بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من طلب العلم ليجاريَ به العلماء، ويُماري به السفهاء، ويصرف وجوه الناس إليه، أدخله اللهُ النار". (رواه الترمذي وحسنه الألباني)

• قال سفيان الثوري: "يقال: تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالِم الفاجر، فإن فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون".

• قال الأوزاعي قال: "كان يقال: ويلٌ للمتفقهين لغير العبادة، والمُستحِلّين الحُرُمات بالشُّبُهات"

• وقال وهبُ بن مُنبِّه: "قال الله ﷻ: فيما يعاتبُ به أحبارَ بني إسرائيل_: تَفقَّهون لغير الدين، وتعلَّمون لغير عمل، وتبتاعُون الدنيا بعمل الآخرة، تَلْبَسون جلودَ الضأن، وتُخفُون أنفُسَ الذئاب، وتتقون القذى من شرابكم، وتبتلعون أمثالَ الجبال من الحرام، وتُثقِلُون الدين على الناس أمثالَ الجبال، تُطيلون الصلاة، وتبيّضون الثياب، وتنتقِصون مالَ اليتيم والأرملة، فبعزَّتي حلفتُ لأضربِنَّكم بفتنةٍ يَضِلُّ فيها رأيُ ذي الرأي وحكمةُ الحكيم"

• وقال الفُضيل بن عياض: "إنما هما عالِمان، عالِمُ دنيا، وعالِمُ آخرة، فعالِمُ الدنيا عِلمُه منشور، وعالِمُ الآخرة علمُه مستور، فاتبعوا عالِم الآخرة، واحذَروا عالِمَ الدنيا، لا يصدُّنَّكم بشَرِّه. ثم تلا هذه الآية:

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤]

الأحبار: العلماء.

والرهبان: العُبَّاد، ثم قال: "لكثيرٌ من علمائكم زِيُّه أشبهُ بزيّ كسرى وقيصر منه بمحمدٍ ﷺ، إن النبي لم يضع لَبِنةً على لبنة، ولا قصَبةً على

قصَبة، ولكن رُفع له عَلَمٌ فشمَّر إليه"

• وقال أيضًا: "العلماءُ كثير، والحكماءُ قليل" يعني: قليلٌ مِن العلماء مَن صان علمَه عن الدنيا، وطلب به الآخرة، والكثيرُ من العلماء قد افتُتن بعلمه، و"الحكماءُ قليل"، كأنه يقول: ما أَعَزَّ مَن طلب بعلمه الآخرة!.

• وقال عبد الله بن مسعود: "لو أن أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، سادُوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا مِن دنياهم، فهانوا على أهلها. سمعت نبيّكم ﷺ يقول: "من جعل الْهُمومَ هَمًّا واحدًا _همَّ آخِرتِه_، كفاه اللهُ همَّ دنياه، ومن تشعَّبت به هُمومُ أحوالِ الدنيا، لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هلك".

• وقال الفضيلُ بن عياض: "إن اللهَ ﷻ يحبُّ العالِمَ المتواضِع، ويبغضُ الجبار، ومَن تواضع لله ورَّثه اللهُ الحكمة".

• وقال مالكُ بن دينار: "إنكم في زمانٍ أشهب، لا يُبصِرُ زمانَكم إلا البصير، وإنكم في زمانٍ قد انتفخت ألسنتُهم في أفواههم، وطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فاحذَروهم على أنفسكم، لا يُوقعوكم في شَبكاتهم، يا عالِم، أنت عالِمٌ؟ تأكل بعلمك!! يا عالِم أنت تفخُر بعلمك، يا عالِم، أنت عالِمٌ؟! تُكاثر بعلمك!! يا عالم، أنت عالِمٌ؟! تستطيلُ بعلمك، لو كان هذا العلمُ طلبته لله لرُئي ذلك فيك وفي عملك ".

صفته في طلبه للعلم "المَفتون"

يطلبُ العلم بالسهو والغفلة، وإنما يطلبُ من العلم ما أسرع إليه هواه.

فإن قال: كيف؟!

قلت: ليس مرادُه في طلب العلم أنه فرضٌ عليه ليتعلمَ كيف يعبدُ الله فيما يعبدُه من أداء فرائضه، واجتناب محارمه؛ وإنما مرادُه في طلبه أن يَكثرَ التعرُّفُ أنه من طلَّاب العلم، وليكون عنده؛ فإذا كان عنده أحدٌ هذَّب نفسه، وكُلُّ علمٍ إذا سمعه أو حفِظه شُرف به عند المخلوقين سارع إليه، وخَفَّ في طلبه، وكلُّ علم وجب عليه فيما بينه وبين ربه ﷻ أن يَعلمه فيعملَ به، ثقُل عليه طلبُه، فتركه على بصيرةٍ منه، مع شدة فقره إليه.

يثقُلُ عليه أن يفوته سماعٌ لعلم قد أراده، حتى يُلزِمَ نفسه بالاجتهاد في سماعه، فإذا سمعه هان عليه تركُ العمل به، فلم يُلزِمْها ما وجب عليه من العمل به كما ألزمها السماع؛ فهذه غفلةٌ عظيمةٌ.

إن فاته سماع شيءٍ من العلم أحزنه ذلك، وأسِفَ على فوته، كُّل ذلك بغير تمييز منه، وكان الأولى به أن يحزَنَ على علمٍ قد سمعه، فوجبت عليه به الحُجة، فلم يعملْ به، ذلك كان أولى به أن يحزَنَ عليه ويتأسف.

يتفقهُ للرياء، ويُحاجُّ للمِراء، مناظرتُه في العلم تَكسِبه المأثم، مرادُه في مناظرته أن يُعرف بالبلاغة، ومرادُه أن يُخطئ مُناظِرُه، إن أصاب مناظرُه

الحق ساءه ذلك؛ فهو دائبٌ يسُرُّ الشيطان، ويكرهُ ما يحب الرَّحْمَن.

يتعجَّبُ ممن لا يُنصِفُ في المناظرة، وهو يجور في المُحاجّة والمجادلة! يَحتجُّ على خطئه-وهو يعرفه ولا يُقِرُّ به- خوفًا أن يُذمَّ على خطئه.

يُرخِّصُ في الفتوى لمن أحب، ويُشدِّدُ على من لا هوى له فيه، ويَذُمُّ بعضَ الرأي، فإن احتاج الحكمُ والفتيا لمن أحب دَلَّه عليه، وعمِل به، مَن تعلم منه علمًا، فهمَّتُه فيه منافعُ الدنيا، فإن عاد عليه خفَّ عليه تعليمُه، وإن كان ممن لا منفعةَ له فيه للدنيا -وإنما منفعتُه الآخرة- ثقُل عليه.

يرجو ثواب علمِ ما لم يعمل به، ولا يخافُ سوءَ عاقبةِ المُساءلة عن تخلُّف العمل به، يرجو ثوابَ الله على بِغضِةِ مَن ظنَّ به السوءَ من المستورين، ولا يخافُ مقتَ الله على مداهنته للمهتوكين.

ينطقُ بالحكمةِ فيَظنُّ أنه من أهلها، ولا يخافُ عظيم الحجة عليه لتركه استعمالها، إنْ علم ازداد مباهاةً وتصنُّعًا، وإن احتاج إلى معرفةِ علم تركه آنِفًا، وإن كثُر العلماء في عصره فذُكروا بالعلم أحب أن يُذكر معهم، وإن سُئل العلماء عن مسألةٍ فلم يُسأل هو، أحبَّ أن يُسأل كما سُئل غيره، وكان أولى به أن يَحمَدَ ربَّه إذ لم يُسأل، وإذ كان غيرُه قد كفاه.

إن بَلَغه أن أحدًا من العلماء أخطأ وأصاب هو، فرح بخطأ غيره، وكان حكمُه أن يسوءَه ذلك. إن مات أحدٌ من العلماء سرَّه موته، ليحتاجَ الناسُ إلى علمه، إن سُئل عما لا يعلم أَنِفَ أن يقول "لا أعلم" حتى يتكلفَ ما لا يَسَعُه في الجواب. إن عَلِم أن غيرَه أنفعُ للمسلمين منه كَرِهَ حياته، ولم يُرشِدِ الناسَ إليه، إن علم أنه قال قولًا فتُوبع عليه، وصارت له به رتبةٌ

عند من جهله، ثم علم أنه أخطأ؛ أَنِف أن يرجعَ عن خطئه، فيَثبُت بنَصْر الخطأ، لئلا تسقط رتبتُه عند المخلوقين.

يتواضع بعِلمه للملوكِ وأبناء الدنيا، لينالَ حظَّه منهم بتأويلٍ يُقيمُه، ويتكبَّرُ على مَن لا دنيا له من المستورين والفقراء، فيَحرِمُهم علمَه بتأويل يُقيمه.

يَعُدُّ نفسه في العلماء، وأعمالُه أعمالُ السفهاء، قد فتنه حبُّ الدنيا والثناءُ والشرفُ والمنزلةُ عند أهل الدنيا. يتجمَّلُ بالعلم كما تتجمَّلُ بالحُلِة الحسناءُ للدنيا، ولا يُجمِّلُ علمَه بالعمل به.

فمن تدبر هذه الخصال، فَعَرف أن فيه بعض ما ذكرنا، وجب عليه أن يستحيِيَ من الله، وأن يُسرِع الرجوعَ إلى الحق، وسأذكُر بعض الآثار على ما ذكرت، ليتأدَّب به العالِمُ _ إن شاء الله _.

فأما قولنا: يتجمَّلُ بالعلم، ولا يُجمِّلُ علمَه بالعمل به.

• فقد قال حبيبُ بن عُبيد: "تعلَّموا العلم، واعقِلوه، وانتفعوا به، ولا تعلَّموه لتتجمَّلوا به، إنه يوشِكُ إن طال بكم العمرُ أن يُتجمَّلَ بالعلم، كما يَتجمَّل الرجلُ بثوبه".

• وقال طاووس: "ما تعلمتَ فتعلَّمْ لنفسك؛ فإن الأمانة والصدقَ قد ذهبا من الناس".

وأمَّا من كان يكرهُ أن يُفتِي إذا عَلِم أن غيرَه يكفيه:

• فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "أدركتُ عشرين ومئةً من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، إذا سُئل أحدهم عن الشيء، أحبَّ أن

يكفيَه صاحبُه".

• وعن سفيان قال: "أدركتُ الفقهاء وهم يكرهون أن يُجيبوا في المسائل والفُتيا، ولا يُفتون حتى لا يَجِدوا بُدًّا من أن يُفتُوا".

• وقال أيضًا: "أدركتُ الناس _ ممن أدركت من العلماء والفقهاء_ وهم يترادُّون المسائل، ويكرهون أن يُجيبوا فيها، فإذا أُعفوا منها، كان ذلك أحبَّ إليهم".

• وقال سفيان: "من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل".

• فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله: "إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا: رجلٌ سأل على أمرٍ لم يُحرَّمْ، فحُرِّم من أجل مسألته". (رواه أحمد والبخاري ومسلم)

• عن ثوبان ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "سيكونُ أقوامٌ من أمَّتي، يتعاطى فقهاؤهم عُضَلَ المسائل، أولئك شرارُ أمتي".

(رواه الطبراني)

• وعن عُمير بن سعيد قال: "سألت علقمةَ عن مسألة، فقال: ائتِ عَبيدة فاسأله، فأتيتُ عَبيدة، فقال: ائتِ علقمة، فقلتُ: علقمةُ أرسلني إليك، فقال: ائتِ مسروقًا فاسألْه، فأتيتُ مسروقًا، فسألتُه، فقال: ائتِ علقمة فسألْه، فقلت: علقمةُ أرسلني إلى عَبيدة، وعَبيدة أرسلني إليك، فقال: ائتِ عبد الرحمن بن أبي ليلى، فأتيتُ عبد الرحمن بن أبي ليلى، فسألتُه، فكرهه، ثم رجعتُ إلى علقمة فأخبرته قال: كان يقال: أجرؤ القوم على الفُتيا أدناهم علمًا".

صفة من لم ينفعهم الله بالعلم

وأما من كانت أوصافه وأخلاقه الأخلاق المذمومة التي ذكرناها، لم يَلتفت إلى هذا، واتبَعَ هواه، وتعاظَم في نفسه، وتجبَّر، ولم يؤثِّر العلمُ في قلبه أثرًا يعودُ عليه نفعُه، وكانت أخلاقُه _في كثيرٍ من أموره_ أخلاقَ أهل الجفاء والغفلة، وسأذكُر من أخلاقه الجافية ما إذا تصفَّح نفسه مَن خرج عن الأخلاق الشريفة، ورضي لنفسِه بالأخلاق الدنيئة التي لا تحسُنُ بالعلماء: عَلِم أنها فيه، وشَهِد على نفسه بذلك، لا يمكنهُ دفعُ ذلك، واللهُ العظيم مُطَّلِعٌ على سِره.

• فمن صفته: أن يكون أكثرُ همِّه معاشَه من حيث نُهي عنه مخافةَ الفقر أن يَنزل به، لا يقتنع بما أُعطي، مستبطئًا ما يجري به المقدورُ أن يكون، شُغلُ الدنيا دائمٌ في قلبه، وذِكرُ الآخرة خطرات، يطلبُ الدنيا بالتعبِ والحرصِ والنصَب، ويطلبُ الآخرة بالتسويفِ والمُنى.

• يذكر الرجاء عند الذنوب، فيطلبُ نفسه بالمُقام عليها، ويذكرُ العجزَ عند الطاعة حين همَّ بها، فينقطع عنها، ويظنُّ أنه مُحسِنٌ بالله الظن، وأنه واثقٌ به في العفو، ولم يُضمن له، ولا يُحسِنُ الظنَّ بالله ويثقُ به في الرزق الذي ضُمن له. يضطربُ قلبُه ويُشغل بطلب رزقه، وقد أُمر بالطمأنينة فيه إلى ربِّه، ويطمئنُّ ويسكنُ عند ذكر الموت، وقد نُدب إلى أن يخافَه، ولا يسكنُ عند الحذَر والخوف من أجل رِزقه، وقد ضُمن له، وأمَّنه

الله مِن أن يفوته ما قُدِّر له، فما أمَّنه اللهُ منه يخافه، وما خوَّفه اللهُ منه أَمِنه.

• يفرحُ بما آتاه اللهُ من الدنيا، حتى ينسى بفرحه شُكرَ رَبِّه، ويغتمُّ بالمصائب حتى تشغلَه عن الرضا عن ربه، إن نابته نائبةٌ سبق إلى قلبه الفزعُ إلى العباد والاستعانة بهم، يطلبُ من ربِّه الفرج إذا يَئِسَ من الفرج من قِبَلِ الخلق، فإن طَمِع في دنوٍّ إلى مخلوق نسي مولاه.

• اصطنع له معروفًا غَلب على قلبه حبُّ المصطنَع إليه، وشَغَل قلبه بذكره، وألزم قلبه حُبَّه وشكره، ناسٍ في جميع ذلك ربَّه.

• يصعب عليه بذلُ القليل من ماله لمن لا يكافئُ عليه ، ويَخِفُّ عليه بذلُ الكثير لمن يكافئُهُ أو يأملُ منه منفعتَه في دنياه.

• يَثقُلُ عليه الذِّكْر، ويَخِفُّ عليه فضولُ القول.

• إن مَرِض سوَّف التوبة وأظهر الندامة، وعاهد ألا يعود، وإن وجد الراحة نقض العهد.

• ينظرُ إلى من فُضِّل عليه في الرزق، فيستقلُّ نِعمَ ربَّه فلا يشكره، ولا ينظرُ إلى من هو دونه في العيش فيشكر النعمة.

• يتشاغلُ بالفضول عن الصلوات إلى آخر أوقاتها، فإن صلَّى صلَّى لاهيًا عن صلاته، غير معظم لمولاه إذا قام بين يديه، إذا أطال إمامُه الصلاة ملَّها وذمَّه، وإن خفَّفها اغتنم خِفَّته وحَمِدَه.

• قليل الدعاء ما لم تنزل به الشدائد والعلل، فإن دعا فبقلبٍ مشغولٍ بالدنيا.

فهذه الأخلاق وما يشبهُها تغلبُ على قلب من لم ينتفع بالعلم، فبينا هو مقارنٌ لهذه الأخلاق، إذ رَغِبت نفسُه في حُبِّ الشرف والمنزلة، وأحب مجالسةَ الملوكِ وأبناءَ الدنيا، فأحبَّ أن يشاركهم فيما هم فيه من رخِيّ عيشهم، من منزلٍ بَهيّ، ومركب هَنيّ، وخادمٍ سريّ.

فالويلُ لمن أورثه علمُه هذه الأخلاق.

هذا العالِمُ الذي استعاذ منه النبي ﷺ، وأمر أن يُستعاذَ منه، هذا العالِمُ الذي قال فيه النبي ﷺ: "إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم يَنفعْه عِلمُه".

(ضعيف)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اللهم إني أسالك علمًا نافعًا وأعوذ بك من علم لا ينفع".

(رواه ابن ماجه وابن حبان والطبري وصححه الألباني)

قال جابر: فأسرعتُ إلى أهلي، فقلت لهم: إني سمعتُ رسول الله يدعو بهؤلاء الكلمات، فادعُوا بِهِنَّ.

تفقهوا..

قبل أن تســودوا

قواعد في التعامل مع العلماء

إني مُتْحِفُك بخَمْسَ عشرةَ قاعدةً تضبطُ من خلالِها تعاملَك مع مُعلمك العالِم، اختصرتُها لك من كتابِ "قواعد في التعامل مع العلماء" نسأل الله تعالى أن يُعلِّمَنا ما ينفعنا، وأن ينفعنَا بما يعلمُنا، وأن يُزيّنَنَّا بالأدبِ، وأن يَزيدَنَا علمًا، وقد وفَّقَنَا اللهُ تعالى لزيادةِ بعضِ القواعِد والحواشي، فللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

القاعدة الأولى: موالاةُ العلماءِ ومحبتُهم:

فإنَّ أولى الناس بالموالاةِ، وأحقُّهم بالمحبةِ في اللهِ بعد الأنبياءِ هم العُلماء

توقير العُلماء:

ولعل الباعث على توقير مُعَلّمك واحترامِه وأداءِ حقه ينبعُ من معرفةِ شأن العلماء ومنزلتهم في شريعة الإسلام، وكثير يخلط بين التوقير والتعصب، وهذه آفة الجهل وسوءِ النية، فأنت حين توقرُ مُعلمك؛ فإنما تطيع الله ورسوله، وتلتزم بشريعة الإسلام التي أوجبت عليك ذلك، فطاعتُهم ليست مقصودة لذاتها، بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [النساء: ٥٩]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يُعلِّمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله عز وجل طاعتهم على العباد "

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هم العلماء والأمراء جميعًا، وكذا الحافظ ابن كثير وابن القيم _رحمهما الله_ وغيرهما

فطاعة العلماء تبعٌ لطاعة الله تعالى، فالعلماء بمنزلة الأدلاء، بهم يُعرف حُكم الله، ويُستعان بفهمهم لفهم مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ، لا أن طاعتهم مقصودة لذاتها.

ومن هنا يتبين الفرق بين التعصب للآراء والأشخاص وبين الاستعانة بفهم هؤلاء العلماء للدلالة على الطريق؛ لأنهم الثقات، ورثة الأنبياء، والمشهودُ لهم بالعدالة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]

قال ابن القيم رحمه الله: وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية الثناءُ على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلُهم.

ثم إن الله اختصهم دون سواهم بفهم آياته، فخواص الأدلة -وهي الأمثالُ- تضربُ للناس كلهم، ولكن تعقلها وفهمها خاص بأهل العلم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

فإذا تقرر هذا الأمر، فينبغي أن تعلم:

• أولًا: أن الناس في شأن توقير العلم والعلماء بين طرفين ووسط :

فقومٌ غلاةٌ قد جعلوا للعلماء قداسة بحيث لا يسألون عما يفعلون، فمثلُ هؤلاء كاليهود الذين اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دون الله، أو كالرافضة الذين جعلوا لأئمتِهم منزلة لا ينالها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبي مرسَلٌ.

• وقومٌ أهدروا مكانة العلماء، فاستخفوا بأقدارهم، وسَمَّموا العقول تحت شعارات براقة مثل: (لا كهنوت في الإسلام)، (لا قداسة لأحد في الإسلام)، ومثل هؤلاء كالخوارج الذين لم يرفعوا بساداتِ علماءِ الصحابة رأسًا.

• وأهل الحق بين هذين الطرفين، فحفظوا لأهل العلم أقدارهم، وعَرَفوا أنهم أدِلاءُ على حكم الله، فلا قداسة لهم في ذواتِهم، ولا عصمةَ لأحدٍ سوى لرسولِ الله ﷺ، فعرفوا الرجال بالحق، لا الحق بالرجال.

قال الإمام أحمد رحمه الله: رأيُ الأوزاعيّ، ورأيُ مالك، ورأيُ أبي حنيفة، كُلُّهُ رأيٌ، وهو عندي سواءٌ؛ وإنما الحجةُ في الآثار.

قال الإمام الشاطبي: وهذا لسانُ حالِ الجميع، ومعناه أن كلَّ ما يتكلمون به على تحري أنه طابق الشريعة الحاكمة، فإن كان كذلك فبها

ونعمت، وما لا فليس بمنسوب إلى الشريعة، ولا هم أيضا ممن يرضى أن تُنْسَبَ إليهم مخالفتُها.

• ثانيًا: أن الأخذ عن العلماء لا يقتصر على مجرد العلم ومسائله، بل يؤخذ عنهم الهدى الظاهر والسمت، وهذا لا يأتي دون ملازمتهم والجلوس إليهم.

قال محمد بن سيرين رحمه الله: كانوا يتعلمون الهدْى كما يتعلمون العلم.

ثالثًا: أن هذا القدر الواجب من التوقير والتقدير والاحترام والطاعة للعالِم لا يكون إلا بالشرع، فمتى ما خالف العالمُ الشريعة، أو قام بخارم لدينه، فإنه لا طاعة له، وحذار هنا من أقوال الأقران من أهل العلم؛ فإنها تُطوى ولا تُرْوى، بل على طالب العلم توقير الجميع دون حط من قدر أحدهم بسبب خصومات تحدث بين الأقران في كل زمان، أو تحدث بسبب التحاسد أو الضغائن، وإياك وهذه، فإنها حالقة الدين.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ: فيجبُ على المسلمين بعد موالاةِ الله تعالى ورسولِه ﷺ موالاةُ المؤمنين كما نَطَقَ به القرآنُ، خصوصًا العلماءَ الذين هم ورثةُ الأنبياء، الذين جَعَلَهُم اللهُ بمنزلة النُّجوم يُهتدى بهم في ظلماتِ البر والبحر، وقد أجمع المسلمونَ على هدايتهم ودرايتهم.

فيلزمُك -أيها المتفقهُ- أن تُحِبَّ شيخَك، فهذا كان معيارَ الخير الذي يقاس به النَّاسُ عند السَّلف رضوان الله عليهم.

قال الإمام الطحاويُّ رحمه الله: وعلماءُ السَّلَفِ من السَّابِقِين ومن بعدَهم من التابعين أهلُ الخيرِ والأثر، وأهل الفقهِ والنظرِ، لا يُذْكَرُون إلا بجميل، ومن ذَكَرَهُم بسوءٍ فهو على غير السبيل.

وموالاةُ العلماء لا تعني التعصب لذواتِهم أو آرائِهم -كما تقدم بيانه- فالمسلمُ الحقُّ من لا يجعلُ الموالاة والمعاداة على أساسٍ غير الكتاب والسُّنة، أما الغلو فإنه شِيمَةُ أهل الأهواء والجُهَّال.

حجَّ بشرٌ المريسيُّ المُبتدعُ، فلما قَدِمَ قال: رأيتُ بالحجازِ رجلًا ما رأيتُ مثلَه سائلًا ولا مجيبًا -يعني الشافعيَّ- قال: فقدمَ علينا، فاجتمعَ إليهِ النَّاسُ وخَفُّوا عن بشرٍ، فلمَّا قدِمَ النَّاسُ لبشرٍ يخبرونه بشأنِ الشافعيّ وشدتِه عليه قال: قد تغيرَ عمَّا كان عليه، فهكذا أحبَّ لهواهُ وأبغَضَ لهواه.

القاعدة الثانية: احترامُ العلماءِ وتقديرهم

قال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ منْ أُمَّتي مَنْ لم يُجِلَّ كَبيرَنَا، ويَرحَمْ صَغيرَنَا، ويَعْرِفْ لِعالِمنَا حَقَّه".

وقال ﷺ: "إن من إجلَالِ اللهِ إكْرَامَ ذي الشَّيبةِ المُسْلم، وحامل القُرآنِ غير الغَالي فِيه والجافِي عنه، وإكرَامَ ذي السُّلطَان المُقْسِط".

قال طاووس: من السُّنةِ أن يُوَقَّرَ أربعةٌ: العالمُ، وذو الشيبةِ، والسلطانُ، والوالدُ.

أما ترى ابن عباس ﷺ يأخذُ بركابِ زيد بنِ ثابتِ الأنصاري ﷺ ويقول: هكذا أُمِرْنَا أن نَفْعَلَ بعلَمائِنَا وكُبَرَائِنا؟!

بل كان ﷺ يأتي الصحابيَّ يخبره بحديثٍ عن رسول الله ﷺ، فينتظرُه حتى يخرجَ من بيته حتى تسفي الريحُ على وجهِه طلبًا للعلم.

وهذا الإمامُ مسلمٌ يَهُمُّ بتقبيلِ رِجْلِ البخاريّ ويقولُ: دَعنِي حتى أقبلَ رجليكَ يا أستاذَ الأستاذين، وسيدَ المُحدّثِينَ، وطبيبَ الحديثِ في عِلَلِهِ.

القاعدة الثالثة: السَّعيُ إلى العلماءِ والرحلةُ إليهم طلبًا لعلمهم

فلا يَفُوتنَّك لقاءُ العالِمِ، وكيفَ بطالبِ العلم أن يسمعَ بعالمٍ على الأرض ولا تتوقَ نفسُه إلى لُقياه، بل إنَّه ليتحسَّرُ ويَشْتَدُّ أسفُه إذا سَمِعَ بعالمٍ معاصر له ولم يَرَه، فأينَ نحنُ منَ السَّلَفِ الذين جعلوا المعاصرة كحكم اللُّقيا، إذ كان من المتعذرِ عندَهم أن يُعاصرَ طالبُ العلمِ عالمًا -لا سيما في بلدتِه- ولا يأخُذَ عنه؟!

قال ابنُ مهدي رحمه الله: كان الرجلُ من أهل العلمِ إذا لَقيَ من هو فوقَهُ في العلم فهو يومُ غنيمتِه؛ سأله وتَعَلَّم منه، وإذا لَقيَ من هو دونَه في العلم عَلَّمَهُ وتواضع له، وإذا لَقيَ من هو مثلُه في العلمِ ذاكره ودارسه.

قال ميمونُ بنُ مهران رحمه الله: العلماءُ هم ضالتي في كل بلدٍ، وهم بغيتي إذا لم أجدهم، وجدْتُ صلاح قلبي في مجالسةِ العلماء.

وقال أبو الدرداء: من فِقْهِ الرَّجُلِ ممشاه ومدخلُهُ ومخرجُهُ مع أهلِ العلمِ.

القاعدة الرابعة: الصبر على العلماء وشدتِهم أحيانًا

قال لقمانُ لابنه: اصبر نفسَكَ لمن هو فوقَكَ في العلم ولمن هو دونَكَ؛ فإنَّما يَلحَقُ بالعلماءِ من صَبَرَ لهم ولازمَهُم واقتبسَ مِن علمِهم في رفقٍ.

قال ابنُ ماجه رحمه الله: جاء يحيى بنُ معينٍ إلى أحمدَ بن حنبل، فبَيْنَا هو عنده إذ مَرَّ الشافعيُّ على بغلتِه، فوثبَ أحمدُ يُسَلِّمُ عليهِ وتبعَه فأبطأ، ويحيى جالسٌ، فلمَّا جاء قال يحيى: يا أبا عبد الله، لِمَ هذا؟! فقال: دَعْ عنكَ هذا، إن أردتَ الفقهَ؛ فالزم ذَنَبَ البَغلةِ.

وهذا يحيى بنُ معينٍ رحمه الله يَرْفسُهُ أبو نعيم الفضلُ بنُ دُكينٍ رحمه الله ويرمي به؛ لأنه أراد أن يختبرَه، فيقول يحيى رحمه الله: والله، لرفستُه لي أحبُّ إليَّ من سَفْرَتِي.

وقال الشافعي رحمه الله: قيل لسفيانَ بن عيينة: إنَّ قومًا يأتونك من أقطار الأرض تغضبُ عليهم؟! يوشكُ أن يذهبوا ويتركوك، فقال للقائل: هم إذنْ حمقى مثلُك إن تركوا ما ينفعُهم لسوءِ خُلُقِي.

أيها المتفقهُ،

قد علمتَ أنَّ العلمَ لا يُنالُ إلا بذلِّ النَّفسِ، فلا بُدَّ لك من صبرٍ، فبدونه لن تنالَ غايتَك، ومن ذلك أن تصبرَ على شدَّةِ العلماءِ، فإنَّ منَ النَّاسِ مَن لا يحسنُ تزكيتُه إلا بالشديدِ من الأقوالِ والأفعالِ، وقد يَرَى شيخُك فيك ما لا تراه من نفسِك من الآفاتِ المهلكاتِ، فيشتدُّ عليك رأفةً بكَ وحرصًا فَتَدَبَّرْ! وقد قال القائل:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقْسُ أحيانًا على من يرحمُ

القاعدة الخامسة: رعايةُ مراتبِ العلماءِ

فالعلمُ مراتبُ، ولكلِّ عالمٍ منزلةٌ، وقد أُمِرْنَا بأن نُنْزِلَ النَّاسَ منازلَهم، وتقديرُ هذه المنازلِ ينبغي أن يكونَ لمن أُوتي قدرًا من العلم، لا إلى الجُهَّال.

قال الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله: الجاهلُ لا يعلمُ رُتبَةَ نفسِه، فكيف يعرفُ رتبةَ غيرِه؟!

ومن مراعاةِ مراتبِ العلماءِ:

(١) أن تراعيَ تخصصَه

حيثُ يغلِبُ على العالم فنٌّ من فنونِ العلمِ، فيكونُ لقولِهِ في هذا الفنِّ من الاعتبارِ ما ليس لقولِ غيره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خَطَبَ عُمر بنُ الخطاب -رضي الله عنه- النَّاس بالجَابِيَةِ، وقال: يا أيُّها النَّاسُ، مَنْ أراد أن يَسأَلَ عن القرآن؛ فليأتِ أُبَيَّ بن كعب رضي الله عنه، ومَن أراد أن يسألَ عن الفرائض؛ فليأتِ زيدَ بن ثابتٍ رضي الله عنه، ومن أراد أن يَسأَلَ عن الفقهِ؛ فليأتِ مُعاذَ بن جبلٍ رضي الله عنه.

(٢) أن تراعيَ عُمُرَهُ وسِنَّه

فكلما كان العالمُ أقدمَ كان في العادةِ أكثَر رسوخًا؛ إذ العلمُ تراكميٌّ، فيزدادُ بمرورِ الوقتِ، ويصيرُ للعالمِ الأَسَنِّ من التجارب والمعرفةِ ما ليس لغيرِه، لذلك ذَمَّ السَّلَفُ الأخذَ عن الصغارِ؛ إذ ذلكَ من أشراطِ الساعة.

قال عمر ﷺ: فسادُ الدينِ إذا جاءَ العلمُ من قِبَلِ الصغيرِ واستعصى عليه الكبيرُ، وصلاحُ الناسِ إذا جاء العلمُ من قِبَلِ الكبيرِ وتابعه عليه الصغير.

وقال ﷺ: ألا وإن النَّاس بخيرٍ ما أخذوا العلمَ عن أكابِرِهم، ولم يَقُم الصغيرُ على الكبير، فإذا قام الصغيرُ على الكبيرِ فقد، أي: هَلَكُوا.

ويَصْدُقُ في ذلكَ قولُ القائلِ :

مَتَىٰ يَصِلُ العِطَاشُ إلىٰ ارْتِوَاءٍ إذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ مِنَ الرَّكَايَا

والشريعةُ جاءت بالمحافظةِ على قدرِ الكبير، فهو المُقَدَّمُ للإمامةِ في الصلاةِ عند التَّساوي في القراءةِ والعلم والإسلام والهجرة، فواجبُ الأحداثِ أن يتفرغوا للطلبِ والتَّلَقّي، فهذا زمانُ الأخذِ فانْهَلْ، أمَّا الكبيرُ فزمانُه زمانُ الإنفاقِ، فَلْيَجُدْ ولا يَبْخَل.

ومن أَسَفٍ أن تَرى بعض النَّاسِ يأخذُ عن بعضِ طلبةِ العلمِ الصغار ما يتعارضُ مع ما يَرَاهُ الأَجِلَّةُ من العلماءِ، وأن يحفظَ لطالبِ العلمِ من الحقوقِ ما لا يحفظُ لغيرِه من أكابِرِ العلماءِ، فاحفظ_ أيها المتفقهُ_ للعلماءِ مراتبَهُم.

القاعدةُ السادسةُ: حذارِ من القدحِ في العلماءِ

فطالبُ العلمِ عفيفُ اللسانِ، ذليلُ النَّفسِ، بغيتُه رضا رَبِّه، ووسيلتُه إلى ذلك الأخذ عن أهل العلمِ والفضلِ، فكُلهم ذوو شأنٍ عندَه ومكانةٍ، لا يَحُطُّ من قَدْرِ أحدِهم، ولا يُنْصِتُ لفاحشِ القولِ فيهم، بل يَرُدُّ غيبتَهم، وإن لم يستطع فارق تلك المجالسَ التي تنعقدُ في "تصنيفِ العلماء" و"النيلِ منهم" و"القدحِ في ذواتِهم أو آرائِهم"، وهي مجالسُ لا تبوءُ بصاحبِها إلى خيرٍ البتَّة.

فالقدحُ في العلماءِ مُحَرَّمٌ؛ لأنهم منَ المسلمينَ، والنبيُّ ﷺ قال: "إنَّ دِمَاءَكُمْ، وأمْوالَكُم، وأعراضَكُمْ عليكُم حرامٌ كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شَهرِكُمْ هذا في بلدِكُمْ هذا". (متفق عليه)

ولمَّا كان القدحُ في العلماءِ مَطِيَّةً للقدح في الدِّين؛ ازدادت حُرمةُ ذلك الصنيع شرعًا؛ إذ قاعدةُ الشريعةِ الأصليةُ أنَّ للوسائلِ حكمَ المقاصِدِ، فمتى ما أَفْضَتِ الوَسيلةُ إلى محرمٍ؛ فإنها تُحَرَّمُ تَبَعًا لأثرِها وما ينتجُ عنها.

لذلكَ كانَ سَابُّ الصحابةِ زنديقًا؛ لأنَّ انتقاصَ الصحابةِ انتقاصٌ للرسول ﷺ، إذ ما أقبحَ بالرجلِ أن يصحبَه صحابةُ السُّوءِ.

وتواترت الآثارُ عن السَّلَفِ في رميِهم القادحَ في أهل العلمِ من التابعين فمن بعدَهم بالزندقةِ، وهذا محمولٌ على الكلامِ في العالمِ بظلمٍ وهوًى.

وكانَ السَّلَفُ يعظمون قدر العلماءِ، ويَرَونَ من استَخَفَّ بِهِم على سبيلِ الهَلَكَةِ.

قال ابنُ المبارَكِ رحمه الله: فإنَّه من استَخَفَّ بالعلماءِ ذَهَبَت آخرتُه.

فالاستخفافُ بالعلماءِ إيذاءٌ لهم، وهم أولياءُ الله تعالى، وَمَن آذىٰ أولياءَ اللهِ تعالىٰ أَوْشَكَ أن تتنزَّلَ عليه لعناتُ اللهِ تعالىٰ ومقتُه.

وفي الحديثُ القدسيّ: "من عادىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ"(أخرجه البخاري)

ولقد قالَ رجلٌ من المنافقينَ: ما رأيتُ مثل قُرَّائِنا هؤلاءِ أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ لسانًا، ولا أجبنَ عند اللقاء، فأنزل الله تعالىٰ:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة ٦٥:٦٦]

فردَّ اللهُ علىٰ اعتذارِهم غير المقبولِ، وجَعَلَ استهزاءَهم بالرسول ﷺ وصحبِه استهزاءً به سبحانَه، وهذا يدلُّ علىٰ خطورةِ الأمر.

ثُمَّ إنَّ القدحَ في العلماءِ والاستخفافَ بهم من جملةِ الغِيبةِ المنهيِّ عنها، وغِيبَةُ العالِم أعظمُ من غِيبَةِ غيرِه لِعِظَمِ قدرِه، ولعلَّ من أفضلِ ما

قيل في هذا الأمرِ كلمةَ الإمامِ الحافظِ ابن عساكرَ الدمشقيّ رحمه الله.

قالَ: اعلم يا أخي -وفقني الله وإياكَ لمرضاتِه، وجَعَلَنَا ممن يخشاهُ ويتقيه حَقَّ تُقاتِه- أنَّ لحومَ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةَ اللهِ في هَتْكِ أستارِ منتقصِيهِم معلومةٌ؛ لأنَّ الوقيعةَ فيهِم بما هُم منه بَراءٌ أمرُه عظيمٌ، والتناولَ لأعراضِهم بالزورِ والافتراءِ مرتعٌ وخيمٌ، والاختلافَ على ما اختاره الله منهم لنشرِ العلمِ خلقٌ ذميمٌ، وما وقع فيهم أحد بالثَّلبِ إلا ابتلاهُ اللهُ قبل موتِهِ بموتِ القلبِ.

وكم أورثَ القدحُ في العلماءِ مِن البلايا!! ألم تَرَ إلى تسليطِ الأصاغرِ وإعجابِهم بآرائِهم دونَ مَن سواهم؟! ألم تَرَ الجرأةَ على التعدّي على أهل العلم سلفًا وخلفًا؟!

ألم تر آفاتٍ كالعُجبِ والكِبرِ والخيلاءِ تسري كسريانِ الدَّمِ في العروقِ بين طلبةِ العلم في بدايةِ الأمرِ، ألم تَرَ من يقولُ: فلانٌ لا يُعتَدُّ بتصحيحِه وتضعيفِه، وفلان لا يؤبه بقولِه، والحافظُ فلانٌ كان على بدعةٍ ضلالةٍ، والإمامُ فلانٌ أخطأ في كيت وكيت؟!

يا هذا مَا لَكَ أنت بمثلِ ذلك؟! إنما شأنُكَ أن تتلقىٰ وتتعلمَ، واترك شأنَ الأكابِرِ لمن يماثلونَهم، أمَّا أنت فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ؛ فإنَّك مشمولٌ بسترِ الله، ولو هُتِكَ السترُ لَبَانَ عَوَارُك؛ فلا تأمن عاقبة مكرِ اللهِ تعالىٰ.

القاعدةُ السابعةُ: احذر من تخطئَةِ العلماءِ بدون علمٍ:

نَعَمْ؛ العلماءُ بشرٌ يُخطئون ويُصيبون، وأبَىٰ الله ﷻ أن تكونَ العصمةُ إلا لرسولِه ﷺ، وقد يُبْصِرُ طالبُ العلمِ خطأَ شيخِه، وقد تخرجُ فتوىٰ لأحدِ العلماءِ فيعارضُها جماهيرُ العلماءِ، فيتبينُ لطالب العلمِ عن طريقِ نَصْبِ الأدلةِ أن هذا العالمَ أخطأَ في هذا الأمرِ، فتُرى كيفَ يتعاملُ مع هذا الواقعِ حينئذٍ؟

أكبرُ المزالقِ التي تَزِلُّ فيها أقدامُ بعضِ طلبة العلمِ أنَّه إذا تبين له خطأُ شيخِه انحطَّ قدرُه في قلبِه، ويبدأ في الجرأةِ عليه، ولربَّما نَالَ منه في غيبتِه، لا سيَّما في المسائلِ التي تسمَّىٰ بالطبوليات؛ لأنَّ زلةَ العالمِ مضروبٌ لها الطُّبْلُ.

وهدي السَّلفِ على خلافِ ذلك، فالشأنُ حينئذٍ أن تلتمسَ للعالمِ العُذْرَ، واضرب لخطئه ألف "لَعَلَّ" ؛ فإنها المأمنُ مِن الوقيعةِ في أهلِ العلمِ.

ولله دَرُّ الإمامِ الذهبي عليه رَحَمات اللهِ وبركاته؛ فقد ضربَ لنا مئاتِ الأمثلةِ على حسنِ الخلقِ وكيفيةِ التعامل مع أخطاءِ العلماءِ والردِّ عليها في كتابِه القيم "سير أعلام النبلاء"، ومن ذلك هذا الموقفُ الطيبُ حين ساقَ خبرًا أنَّ وكيعًا رحمه الله كانَ يصومُ في الحضرِ والسفرِ، ويختمُ القرآنَ كلَّ

ليلةٍ، فقالَ معلقًا:

" قلتُ: هذه عبادةٌ يخضعُ لها، ولكنَّها من مثل إمام من الأئمةِ الأثَرِيَّة مفضُولَةٌ، فقد صحَّ نهيُه ﷺ عن صوم الدَّهر، وصَحَّ أنَّه نهىَ أن يُقرأ القرآنُ في أقلَّ من ثلاث، والدين يُسرٌ، ومتابعةُ السُّنَّةِ أولىٰ، فرضيَ الله عن وكيعٍ، وأين مثل وكيع؟! ومع هذا فكان مُلازِمًا لشُربِ نبيذِ الكوفة الذي يُسْكِرُ الإكثارُ منه، فكان مُتَأَوِّلًا في شُربه، ولو تركه تورُّعًا لكان أولىٰ به؛ فإنَّ مَنْ تَوَقَّىٰ الشُّبهات؛ فقد استبرأَ لدِينِهِ وعرْضِه".

أمَّا إذا كان الخطأُ لم يحدث، وتناقلَ الأحداثُ مثلُ هذه الأباطيلِ، فهذا يدلُّ علىٰ سوءِ الطَّوِيَّة، وجَهْلٍ بقدرِ العلماءِ؛ إذ التثبتُ أولُ خصالِ أولي العلمِ.

ذكرَ الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله أنَّ أبا كامل البصريَّ قالَ: سمعتُ بعضَ مشايخي يقولُ: كنَّا في مجلسِ ابن خَنْب فأملىٰ في فضائلِ علي ﷺ بعد أن كان أملى فضائلَ الثلاثةِ، إذ قَالَ أبو الفضلِ السُّليمانيُّ وصاحَ: أيُّها النَّاسُ، هذا دَجَّالٌ فلا تكتبوا، وخرج من المجلسِ؛ لأنَّه ما سَمِع بفضائلِ الثلاثةِ. قال الذهبيُّ: وهذا يدلُّ على زَعَارَّةِ السُّليمانيّ وغلظتِه، الله يسامحُه.

وفي البلايا الشائعةِ رَمْيُ أهلِ العلمِ بالابتداعِ دونِ علم، وعادةً لا يكونُ للقائل بهذا من دليلٍ أو برهانٍ، والعبرةُ في ذلك لقولِ الائمةِ لا إلى رأي آحادِ النَّاسِ.

وقد رُمِيَ الإمامُ الشافعيُّ والإمامُ أحمدُ ببدعةِ التَّشَيُّعِ، وحاشاهما، وإنَّمَا يُشاعُ حَسَدًا أو جَهْلًا أو افتراءً للوقيعةِ، ولم يَخْلُ للأسفِ من هؤلاءِ زمانٌ، أو يُرمىٰ العالمُ بعدمِ المعرفةِ بالواقعِ، كما يدندنُ بذلك العلمانيون الخبثاءُ للنيلِ من أهل الدينِ.

يقولُ شيخُنا الكريمُ سماحةُ الشيخِ عبدِ العزيزِ بن بازٍ رحمه الله: الواجبُ علىٰ المُسلم أن يحفظَ لسانَه عمَّا لا ينبغي، وألا يتكلمَ إلا عن بصيرةٍ، فقولُ أنَّ فلانًا لم يَفْقَهِ الواقعَ، هذا يحتاج إلىٰ علم، ولا يقولُه إلا من عندَه علمٌ حتىٰ يستطيعَ الحكم بأن فلانًا يَفْقَه الواقع، أمَّا أَنْ يقولَ هذا جُزافًا، ويحكمَ برأيِهِ على غيرِ دليل، فهذا منكرٌ عظيمٌ لا يجوز.

فإياك وهذا السبيلَ _أيها المتفقهُ_ ! لا تجمعِ الزَّلاتِ، ولا تقُل إلا خيرًا، وإلا فاصمتْ؛ فإنها الوصيةُ النبويةُ الذهبيَّةُ.

القاعدةُ الثامنة: التمسْ للعالِمِ العذْرَ:

الأصل في تعامل المسلمين بعضِهم مع بعضٍ يقومُ على أساس حسنِ الظنّ المتبادلِ، قال تعالىٰ في حادثةِ الإفكِ:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١٢]

فالواجب علىٰ أهل الإيمان أن يظنوا الخير في إخوانِهم، فإن بَلَغَك عن أخيكَ خلافُ ذلك فالتمس له عذرًا، فإن لَم تجد فَقُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وأنت تلومُ.

قال عُمر ﷺ: لا تظن بكلمة خرجت من أخيكَ المسلمِ سوءًا وأنت تَجِدُ لها في الخير مَحْمَلًا.

فإذا كان هذا شأنَ الإخوةِ بعضِهم مع بعضٍ، فما بالُكَ بحالِ التلميذِ مع شيخِه.

لذلك يقولُ الإمامُ السُبكِيُّ: فإذا كان الرجلُ ثقةً مشهودًا له بالإيمانِ والاستقامةِ، فلا ينبغي أن يُحملَ كلامُه وألفاظُ كتاباتِه على غير ما تُعُوِّد منه ومِن أمثالِه، بل ينبغي التأويلُ الصالحُ، وحسنُ الظنِّ الواجبُ به وبأمثالِه.

وهذا –للأسف- قَلَّ وجودُه في زمانِنا؛ إذِ النَّفسُ الطيبةُ لا تقعُ إلا على الطيبِ، والنَّفسُ الخبيثةُ لا تقعُ إلا علىٰ الخبيثِ، فما إن يَزِلَّ العالمُ، أو يُشاعُ عنه أمرُ سوءٍ، حتىٰ ترىٰ كُلًّا يطعنُ فيه، ويرمِيهِ بما ليسَ فيه، ولو بحثَ له عن عُذْرٍ لوجدَ وايمُ اللهِ، ولكن النوايا ساءت، والطوايا خَبُثَتْ، فلم تَجِدْ إلا ما ترَىٰ وما تسمعُ!!

(١) ومن أكثر ما يُهمزُ به العلماءُ السُّكوتُ في وقتِ المِحَن خوفًا، والأخذُ بالرخصةِ في ذلك، فيُلامُ علىٰ تركِ العزيمةِ بإشهارِ كلمةِ الحقِّ، وهذا _ولا شك_ أولىٰ في حقِّ العلماءِ الذين يُقتدىٰ بِهم، ولكنَّ العالمَ بَشَرٌ يَخَافُ ويَخْشىٰ، لا سيَّما معَ كبرِ السِّنِّ وضعفِ البدنِ.

فهذا عليُّ بن المدينيّ رحمه الله يُجاري القومَ في أثناءِ محنةِ خلقِ القرآنِ، فيُسأل عن ذلك فيقول: قَوِيَ أحمدُ علىٰ السَّوطِ وأنا لا أقوىٰ.

ويلومُه بعضُهم فيقولُ: ما في قلبي مما قلتُ وأجبتُ إلىٰ شيءٍ ، ولكني خِفْتُ أن أُقْتَلَ، وتعلمُ ضعفي أني لو ضربتُ سوطًا واحدًا لَمِتُّ، أو نحو ذلك.

(٢) ومن ذلك أيضًا شَغَبُ بعضِهم علىٰ العلماءِ في شأنِ أخذِ الأجرةِ على التعليم، أو الأخذِ من بيتِ المال.

ومن يتأمل حالَ الدُّعاةِ والعلماءِ في عصرِنا، العصر الذي لم يَعُدْ فيه بيتُ مالٍ ينفقُ علىٰ طلبةِ العلمِ والعلماءِ، فيضطرُّ العالمُ أن ينفقَ وقتًا طويلًا من عُمره لكسب ما يَتَقَوَّتُ به وعياله، ناهيك عن كثرةِ المتطلباتِ من الكتبِ والرحلةِ في الدعوةِ أو الطلبِ، فمن أينَ لطالبِ علمٍ أو عالمٍ فقيرٍ بكلِّ هذا؟!!

نعم، الورع يقضي ألا يمدَّ العالمُ يدَه فيأخذ أجرةً علىٰ التَّعليمِ أو التصنيفِ ونحو ذلك، ولكن ما البديلُ يا عباد اللهِ؟!

هل البديلُ أن نتركَ العلماءَ وطلبةَ العلم للتكسبِ في زمنِ الغلاءِ فتنهشهم الدُّنيا؟!

هل البديلُ أن يعيشَ هؤلاءِ على صدقاتِ أهلِ الإحسانِ، والنَّاسُ اليومَ لا يعرفون أنَّ مِن أوجبِ الصدقات النفقةَ على طلبةِ العلمِ الذين عليهم حراسةَ الدِّينِ؟!

إنني أعرفُ طلبةَ علم نابغين، كان يُظَنُّ أنهم حملةُ الرايةِ عن قريبٍ، تخطفتهم الدُّنيا لضيقِ ذاتِ اليدِ، فإنَّ طالبَ العلمِ اليومَ يجدُ نفسَه محتاجًا لمال كثيرٍ، ليرحلَ أو ليشتري كتبًا أو أشرطةً، وهو شابٌّ يحتاجُ للزواجِ في زمانِ الفتنِ هذا، فيحتاجُ لمالٍ آخرَ ليجدَ بيتًا وأثاثًا، وقد لا يجدُ من يُعينه علىٰ كلّ ذلك، فلا يجدُ فرصةً سوىٰ العمل الدؤوبِ، فتقلُّ ساعاتُ المذاكرةِ حتى تراه بعدَ فترةٍ هَجَرَ دروسَ العِلْمِ، ثم انكبَّ علىٰ الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكلنا يعرفُ ذلك الأمرَ، ثُمَ تجدُ من يلومُ هذا العالمَ أو ذاك الداعيةَ إنْ أَخَذَ مالًا علىٰ جهدٍ بَذَلَه في تصنيفٍ أو تعليمٍ.

قال بشرُ بنُ عبدِ الواحدِ: رأيتُ أبا نُعَيْمٍ في المنامِ، فقلتُ: ما فَعَلَ اللهُ بك؟! _يعني فيما كان يأخذُ على الحديث_ فقال: نَظَرَ القاضي في أمري فوجدني ذا عِيَالٍ فعفَا عني.

قال الإمام الذهبي رحمه الله معقبًا: ثَبَتَ أنه كان يأخذُ على الحديثِ

شيئًا قليلًا لفقرِه.

قال ابنُ خشرم: سمعتُ أبا نُعَيْمٍ يقول: يلومونني علىٰ الأخذِ وفي بيتي ثلاثةَ عَشَرَ نفسًا، وما في بيتي رغيفٌ.

(٣) ومما يُعتذرُ للعالمِ أيضًا ما يَصدرُ عنه من أفعالٍ وأقوالٍ تتماشىٰ مع طبيعتهِ الذاتية.

فمثلًا: قد يكونُ العالمُ ذا طبيعةٍ متسامحةٍ، فيجالسُ أهل البدعِ -وحقُّه أن يَكْفَهِرَّ في وجوهِهم- ولكن يخالطُهم لما فيه من التسامح الزائدِ، فيظن الجاهلُ بحالِه أن هذا العالمَ بخلطتِه أهل البدعِ صارَ منهم، ويقولُ لك: اعرف الرجلَ بمن يَصْحَبُ، وتتقاذفُ التُّهَمُ، وكم مَرَّ العلماءُ والدعاةُ إلىٰ اللهِ بمثلِ ذلك، حتىٰ يُرمىٰ في عقيدتِه ودينِهِ، وكلامُ الرَّجُلُ يشهدُ ببراءتِه، ولكن ما الصنيعُ فيمن لا يراعون الله في علمائِهم ودعاتِهم؟!

قال الواقديُّ -في الكلامِ علىٰ ابن أبي ذئبٍ-: "ورُمِيَ بالقدرِ، وما كان قَدَرِيًّا، لقد كان يتقي قولَهم ويعيبهُ، ولكنَّه كانَ رجلًا كريمًا، يجلسُ إليه كلُّ أحدٍ، ويغشاه فلا يطردُه، ولا يقولُ له شيئًا، وإن مَرضَ عاده، فكانوا يتهمونه بالقدرِ لهذا وشبهِه".

قال الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله معقبًا: كان حَقُّه أن يَكْفَهِرَّ في وجوهِهم، ولعله كان حَسَنَ الظَّن بالنَّاسِ.

أليس هذا حاصلًا يا عباد الله، ويمكنُ قبولُ العُذرِ به؟! فلماذا لا تُتَلَمَّس الأعذارُ، ويكونُ حُسنُ الظَنِّ متوافرًا بين الخلق؟! اللهم إليك المُشتكىٰ.

القاعدةُ التاسعةُ: الرجوعُ إلى العلماءِ والصُّدورُ عن رأيهم خصوصًا في الفتنِ

فشأنُ الفتنِ أن تشتبه الأمورُ فيها، ويكثرَ الخلطُ والزيغُ، والعصمةُ للجماعةِ التي يمثلُ العلماءُ رأسَها، فالواجبُ علىٰ الناسِ -حاكمًا ومحكومًا- الأخذُ برأي العلماءِ والصدورُ عن قولِهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٣]

ففي الرخاءِ والشدةِ جَعَلَ اللهُ الهدايةَ في الرجوع إلى أهل العلمِ الثقاتِ.

يقولُ الشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ ناصرٍ السَّعدِيُّ رحمه الله: "وفي هذا دليلٌ لقاعدةٍ مهمةٍ، وهي أنه إذا حَصَلَ بحثٌ في أمرٍ ينبغي أن يوكلَ إلىٰ من هو أهل لذلك، ويُجعلَ إلىٰ أهلِه، ولا يُتقدمَ بين أيديهم، فإنه أقربُ إلىٰ الصوابِ، وأحرى للسلامةِ منَ الخطإِ.

فعادةً لا يفقه النَّاسُ من الدقائقِ ما يوقعهُم في الخطإِ كفقهِ المصالحِ والمفاسدِ مثلًا، وغالبًا ما تكونُ الفتنُ متعلقةً بالسياسةِ الشرعيةِ التي ليست كغيرِها من القضايا، بل تقومُ علىٰ الأخذِ بالمقاصدِ الشرعية، والموازنةِ بين المفسدةِ والمصلحةِ وإقامةِ الدليلِ، وهذا متعذرٌ لطلبةِ العلم الصغارِ؛ إذ هذا النوعُ من الفقهِ عزيزٌ، لاحتياجه لسعةِ علمٍ وخبرةٍ في دراسةِ الواقعِ وتطبيقِ النُّصوصِ الجزئيةِ.

وقصةُ نبي الله موسىٰ عليه السلام مع الخضرِ دليلٌ على هذه القاعدةِ المعتبرةِ، فقد كانَ يدفعُ الشّرَّ الكبير بارتكابِ الشرّ الصغيرِ، ويراعي أَخَفَّ الضررين وأكبرَ المصلحتينِ، وهذا مَن الفقهِ العزيز.

ولذلك يكثرُ الخطأُ في بابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وقاعدتُه مَبْنِيَّةٌ على أُسُسٍ، منها: ألا يكونَ النهيُ عن منكرٍ مفضيًا لمنكرٍ أشدَّ منه، وعَزَّ في النَّاسِ من يراعي ذلك، ولذلك كان المردُّ الشرعيُّ في الفتنِ لأهلِ العلمِ خاصةً، بل إن القضايا المُفْضِيةِ لإحداثِ فتنٍ في النَّاسِ لأهلِ الحَلِّ والعَقْدِ وهم العُلماءُ؛ فالزم هذا السبيلَ، فدونَه فتنٌ وبلايًا ومِحَنٌ، وكم مَرَّ المسلمون ببلايا لو صَدَرُوا عن قولِ أهلِ العلمِ لأمنوا تلك الغوائلَ.

القاعدةُ العاشرةُ:

ليس أحد إلا وتُكُلِّم فيه، فَتَثَبَّتْ

إن رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ، وليسَ إلىٰ السلامةِ منهم سبيلٌ.

يقولُ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: ليس إلىٰ السلامةِ من النَّاسِ سبيلٌ، فانظر الذي فيهِ صلاحُك فالزمْهُ.

قال الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله: وقَلَّ مَن برز في الإمامةِ ورَدَّ على من خالفه إلا عُودِي، نعوذُ باللهِ من الهوىٰ.

وقال أيضًا: فَمَنِ الذي يسلمُ من ألسنةِ الناسِ؟! لكن إذا ثَبَتَ إمامةُ الرجلِ وفضلُه، لم يضُرَّه ما قيل فيه؛ وإنما الكلامُ في العلماءِ يفتقرُ إلىٰ وزنٍ بالعدلِ والورعِ.

وإذا قلبتَ تراجمَ العلماءِ -سلفِهِم وخلفِهِم- ثَبت لك بيقينٍ صدقُ هذه القاعدةِ، فما مِن أحدٍ إلا وتُكلم فيه وامتُحن: هذا الإمامُ البخاريُّ يُرمىٰ في مسألةِ "اللفظ والصَّوت"، وهذا الإمامُ أبو حنيفة يُرمىٰ بالإرجاء ناهيك عمَّن رُمي بالقَدَرِ أو التشيع.

قال الإمامُ البُخاري رحمه الله: ولم يَنْجُ كثيرٌ من النَّاس من كلام بعضِ الناسِ فيهم، وذلك نحوُ ما يُذكرُ عن إبراهيمَ من كلامِه في الشعبيّ، وكلامِ الشعبيّ في عكرمة، وكذلك من كان بعدهم، وتناول بعضهم في العرضِ والنَّفْسِ، ولم يلتفت أهلُ العلمِ إلى ذلك، ولا سقطت عدالةُ أحدٍ إلا ببرهانٍ ثابتٍ وحُجةٍ اهـ، والكلامُ في هذا كثيرٌ.

فالموقفُ الرشيدُ حينئذٍ التثبتُ، وذلكَ بتمحيصِ الخبرِ والتحققِ من صدقه قبلَ إفشائِه وإذاعتِه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات: ٦]

القاعدة الحادية عشرة:

ويؤصّلُ ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة الذهبية بكلامٍ نفيسٍ؛ فخذه هنيئًا مريئًا .

قوله رحمه الله تعالى:

من قواعِد الشرع، والحكمةِ أيضًا: أن من كثرت حسناتُه وعَظُمَتْ، وكان له في الإسلامِ تأثيرٌ ظاهرٌ، فإنه يُحتملُ له ما لا يُحتملُ لغيرِه، ويُعفىٰ عنه ما لا يُعفىٰ عن غيرِه، فإنَّ المعصيةَ خبَثٌ، والماءُ إذا بَلَغ قلتينِ لم يحتملِ الخَبَثَ، بخلافِ الماءِ القليلِ فإنه يحملُ أدنىٰ خَبَثٍ.

ثم يقولُ: وهذا موسىٰ كليمُ الرحمنِ ﷻ ألقى الألواحَ التي فيها كلامُ اللهِ الذي كتبه له، ألقاها على الأرضِ حتىٰ تكسرت، ولَطَمَ عينَ ملكِ الموتِ ففقأها، وعاتب ربَّه ليلةَ الإسراءِ في النبي ﷺ، وأَخَذَ بلحيةِ هارون وجرهُ إليهِ، وهو نبيُّ اللهِ، وكلُّ هذا لم ينقص من قَدرِهِ شيئًا عندَ ربّه، وربُّه يكرمُهُ ويُحبُّه، فإنَّ الأمر الذي قام به موسىٰ، والعدوَّ الذي برز له، والصبرَ الذي صبره، والأذىٰ الذي أوذيه في اللهِ أمرٌ لا تؤثرُ فيه أمثال هذه الأمور، ولا تغيرُ في وجهه، ولا تخفضُ منزلتَه، وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناسِ مستقرٌّ في

فطرِهم، وأنَّ مَن له ألوفٌ من الحسناتِ فإنه يُسامح بالسيئةِ والسيئتينِ ونحوها، حتىٰ إنه ليختلجُ داعي عقوبتِه على إساءتِه، وداعي شكرِه علىٰ إحسانِه، فيغلبُ داعي الشكرِ لداعي العقوبةِ، كما قيل:

وإذا الحبيبُ أتىٰ بِذَنْبٍ واحِدٍ جاءتْ محاسِنُهُ بألفِ شفيعِ

وقال آخر:

فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذِي ساءَ واحدًا فأفعَالُهِ اللاتِي سَرَرْنَ كثيرُ

والله سبحانه وتعالى يوازي يوم القيامة بين حسناتِ العبدِ وسيئاتِه، فأيهما غَلَبَ كان التأثيرُ له، فيفعلُ بأهلِ الحسناتِ الكثيرةِ الذين آثروا محابَّه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعِهم أحيانًا من العفوِ والمسامحِة ما لا يفعلُه مع غيرِهم.

القاعدةُ الثانيةَ عشرةَ:

احذَرْ من زلَّاتِ العلماءِ

فالعالِمُ بَشَرٌ غير معصومٍ، والزللُ أمرٌ واردٌ وحاصلٌ _لا محالة_ لكلِّ أحدٍ، وهذه الزلةُ لا تنقص من قدرِه، بل توهب سيئاته لحسناتِه _كما تقدَّمَ_ ولكن هذا لا يعني الإقرارَ بالخطإِ أو اعتمادَه، بل يُبَيِّنُ حكمَ الشَّرعِ في هذه المسألةِ، ويُعتذرُ لمن أخطأ في اجتهادِه فهو مأجورٌ على كلِّ حالٍ.

قالَ الحكماءُ: الفاضلُ مَنْ عُدَّتْ سقطاتُه.

وينبغي لطلبةِ العلمِ أن يُقيلوا ذوِي الهيئاتِ عَثَرَاتِهم، فالواجبُ سترُ هذه الزلةِ وعدمُ إشاعتِها بين الناسِ.

قال ﷺ: "أقيلُوا ذَوي الهيئاتِ عثراتِهم، إلا الحُدُود" (رواه أحمد وصححه الألباني)

وقال ﷺ: "مَنْ أقالَ مُسْلِمًا أَقَالَ اللهُ عثْرَتَهُ "(رواه أحمد وصححه الألباني)

ومن حقّ العالِم أن يُنصحَ إذا زَلَّ؛ فقد قال ﷺ: "الدِّينُ النَّصيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصيحة... ولأئمة المسلمين وعامتهم".

ومن أئمةِ المسلمين العلماءُ، ولهذه المناصحةِ ضوابط شرعيةٌ ينبغي أن تُراعىٰ ويتأدبَ النَّاصِحُ بها:

أولًا: أن يكونَ هدفُ النَّاصِح الإصلاحَ:

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]

فيُحسنُ القصدَ ويحررُ نيتَه ويستعين باللهِ في إيصالِ هذا النُّصحِ لمُبَلّغِه.

ثانيًا: أن تبدوَ أماراتُ حُسنِ قصدِه في تصرفاتِه، فلا يجرحُ الذواتِ ولا يفتري عليها.

ثالثًا: أن يتجنبَ ما يثيرُ عنادَ المنصوحِ ويجعلُه يتمادىٰ في الباطلِ.

رابعًا: أن يكونَ لطيفًا في نصحِه، ولو نَصَحَ بالإشارةِ قُدِّمَت علىٰ العبارةِ، ولو كانت الكنايةُ تَفِي بالغرضِ قُدمت علىٰ الصريحِ من الأقوالِ، لقد كان النبي ﷺ ينصحُ فيقول: "ما بَالُ أقوَامٍ"؟!

خامسًا: أن يبتعدَ عن الألفاظِ المحتملةِ، ولا يتصيدَ الأخطاءَ بلوازمِ الأقوالِ، ولا يتعجلَ الحُكمَ، ويتقي الله في أعراضِ المسلمين، فلا يُلقي بالتُّهم دونَ مسوّغٍ أو دليل قاطعٍ، بل إذا تعذَّرَ لهُ كلُّ ذلك ولم يَجدْ بُدًّا مِن حملِ هذه الزلة علىٰ أيِّ محملٍ كانت النصيحةُ حينئذٍ، لا الفضيحةُ.

سادسًا: أن يبتعدَ عن التشهيرِ أو رمي التُهم علىٰ ذاتِ الشخصِ، بل يكونُ قُصارىٰ جهدِه إبطال الرأي الفاسِد بالأدلةِ الشرعيةِ.

سابعًا: أن يتحرىٰ التَّخفي عن أعين النَّاسِ حينَ تجبُ المواجهةُ مع صاحبِ الزلةِ، ولو نفعت الرسائلُ كانت أوجهَ، ولو ذهبَ إليه حتىٰ لا يراهما أحدٌ كان أفضلَ، ولا يُحدثُ بذلك إلا إذا وَجَبَ بيانُ الخطأ، وشاعَ ضررهُ بين الناسِ، واستفرغَ الوُسعَ في النَّصحِ، فحينئذٍ يُبَيَّن الحقُّ دون تعرُّضٍ للرِّجالِ ولا التشهيرِ بهم.

القاعدةُ الثالثةَ عشرَةَ:

كلامُ الأقرانِ يُطْوى ولا يُروَى:

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في تقرير هذه القاعدة: استمعوا علمَ العلماءِ، ولا تصدِّقوا بعضَهم على بعضٍ.

وقال مالكُ بن دينار رحمه الله: يؤخذُ بقولِ العلماءِ والقُرَّاءِ في كلِّ شيءٍ إلا قول بعضِهم في بعضٍ.

يقولُ الإمامُ ابن عبدِ البر: السَّلَفُ -رضوان الله عليهم- قد سَبَقَ من بعضِهم في بعضٍ كلامٌ كثيرٌ في حالِ الغضبِ، ومنه ما حَمَلَ عليه الحسدُ كما قال ابن عباسٍ ومالكُ بنُ دينار وأبو حازمٍ، ومنه علىٰ جهةِ التأويلِ مما لا يلزمُ القول فيه ما قاله القائلُ فيه، وقد حَمَلَ بعضُهم علىٰ بعضٍ السيفَ تأويلًا واجتهادًا، لا يلزمُ تقليدُهم في شيءٍ منه دون برهانٍ ولا حجةٍ توجبُه.

يقولُ الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله: كلامُ الأقران إذا تبرهن أنه بهوىٰ وعصبيةٍ لا يُلتفتُ إليه، بل يُطوىٰ ولا يُروىٰ.

وقال رحمه الله: وكلامُ الأقرانِ بعضِهم في بعضٍ لا يُعبأُ به، لا سيَّما إذا لاح لك أنه لعداوةٍ أو لمذهبٍ أو لحسدٍ، وما ينجو منه إلا مَن عَصَمَهُ اللهُ، وما علمتُ أنَّ عصرًا من الأعصارِ سَلِمَ أهلهُ من ذلك سوى الأنبياءِ والصديقين، ولو شئتُ لسردتُ من ذلك كراريسَ.

وقد وضَع أئمة الجرح والتعديل أماراتٍ يستشعرُ منها رَدُّ خبرِ المتكلمِ في قرينهِ؛ فمن ذلك:

(١) المنافسة في البلدِ أو التخصص العلميّ:

فقد تكلم ابنُ أبي ذئب في مالكٍ؛ لأنه بلغهُ أنَّ مالكًا رحمه الله لا يأخذُ بحديثِ "البَيِّعانِ بالخيارِ" فاشتدت مقالةُ ابن أبي ذئب رحمه الله في الإمامِ مالكٍ، ولم يعوّل العلماءُ على ذلك، فبقيت إمامتُهما معتبرةً، ولكنهما كانا عالمي المدينةِ، فحدث بينهما ما يكونُ بين الأقرانِ في البلدِ الواحدِ.

وتكلَّمَ سعيدُ بنُ المسيب رحمه الله في عكرمةَ، وتكلَّم الثوريُّ رحمه الله في الإمامِ أبي حنيفةَ، وطوىٰ العلماءُ هذه المقالاتِ، وطعنوا أحيانًا في صحتِها، ووجَّهُوا بعضَهَا بأن هذا شأنُ المعاصرةِ والمنافرةِ ونحوِهما فلم يقبلوا قولَ الإمامِ مالكٍ في محمدِ بن إسحاقَ صاحبِ المغازي؛ لما عَرَضَ لهما من المخالفةِ.

قال العلماءُ بالجرحِ والتعديل: لا يُقبلُ جرحُ المعاصرِ علىٰ المعاصرِ، أي: إذا كان بلا حجةٍ؛ لأن المعاصرةَ تفضي غالبًا إلىٰ المنافرةِ.

قالَ التاجُ السُّبكيُّ في طبقاتِ الشافعيةِ: ينبغي لك _أيها المسترشد_ أن تسلك سبيلَ الأدبِ مع الأئمة الماضين، وألا تنظرَ إلى كلام بعضِهم في بعضٍ،

إلا إذا أتى ببرهانٍ واضحٍ، ثم إن قدرت علىٰ التأويلِ وتحسين الظنّ فدونَك، وإلا فاضرب صفحًا عمَّا جرى بينهم، فإنك لم تُخْلقْ لهذا، فاشتغِلْ بما يَعنيكَ، ودعْ عنكَ ما لا يعنيك، ولا يزالُ طالبُ العلمِ نبيلًا حتى يخوضَ فيما جرى بين الماضين.

وبعد أن ذَكَرَ بعض كلام الأئمةِ في بعضٍ قال رحمه الله: فإنكَ إذا اشتغلتَ بذلك خِفْتُ عليكَ الهلاكَ؛ فالقومُ أئمةٌ أعلامٌ، ولأقوالِهم محاملُ، وربَّما لم نفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوتُ عمَّا جَرَىٰ بينهم، كما يُفعلُ فيما جرى بين الصحابةِ ﷺ.

ومن العلامات أيضًا:

(٢) الاختلاف المذهبيُّ: فإن اختلافَ الآراءِ نظرًا لاختلافِ الأصولِ والمنابعِ مُفْضٍ للخصوماتِ والعداواتِ، والتاريخُ شاهدٌ علىٰ ذلك، ومَن لا يدري ما صَنَعَهُ "التعصبُ المذهبيُّ" في الأمةِ من بلياتٍ؟! فطَعَنَ هؤلاءِ في أولئكَ، وقَبِلوا كلَّ ضعيفٍ أو موضوعٍ لوجودِ الدافعِ ولقلةِ العلمِ، فأرِحْ نفسك، وأنزِل الأئمةَ منازلَهم.

ومنها أيضًا:

(٣)الغضب الشديدُ: فإنَّ الغضبَ ملاكُ كل شَرٍّ، والعلماءُ بَشرٌ يغضبون ويرضون:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عيْبٍ كلِيلةٌ ولكِنَّ عَيْنَ السخْطِ تُبدِي المَسَاوِيَا

ومنها:

(٤) وجودُ المخاصماتِ والإحَنِ: وقد تفعلُ قالةُ السوءِ وحملةُ النميمةِ بأهلِ العلمِ ما قد تَرى وتدري، فنسألُ الله العافيةَ من الغيبةِ والنميمةِ والسعايةِ بالسوءِ بين المسلمينَ، والله المستعان.

أيها المتفقهُ:

وما تقدَّمَ لكَ من خصوصياتِ العلماءِ لا ينبغي أن يَطمِسَ عنكَ صورًا مشرقةً لأهلِ العلمِ الأجلاءِ، الذينَ كانوا يثني بعضهُم على بعضٍ، مع ما قد يكونُ عرضَ لهُم من خصوماتٍ واختلافاتٍ، وانظر لثناءِ الأئمةِ الأربعة بعضهم في بعضٍ، فهذا الشافعيُّ يَرىٰ كلَّ الفقهاءِ عيالًا علىٰ فقهِ أبي حنيفةَ، ويستمدُّ الحديثَ إلى الإمامِ، وهذا أحمدُ رحمه الله لا يَرى مثلَ الشافعيّ في دراية الحديثِ وفقهِه، ويَرىٰ أنَّ من فاته علمُ هذا الرجلِ لحِقُهُ خسرانٌ شديدٌ، وهَلُمَّ جَرًّا، فضع قاعدتَنَا السابقةَ في موضعِها إن عرضَتْ.

القاعدة الرابعةَ عشرةَ:

العَدْلُ والإنصافُ شرطٌ لازمٌ للحُكمِ على أهل العلمِ والاجتهادِ

فالأصلُ أنَّ كلَّ مجتهدٍ مأجورٌ غير مأزورٍ، مع أنَّ الحقَّ واحدٌ، فمن أصابه فلهُ أجرانِ، ومن خَفِيَ عليهِ فلهُ أجرٌ.

قال ﷺ: "إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتهدَ فأصابَ؛ فلهُ أجرانِ، وإذا اجتهدَ فأخطأ؛ فلهُ أَجْرٌ".

أخرجه البخاري في صحيحه البخاري برقم:(٧٣٥٢)

والاختلاف أمرٌ مقدورٌ لا يمكنُ تجاوزُه، وغالبُ الفروعِ يخضعُ للظنونِ، وهذا مما ساغَ الاختلافُ فيه، ويسعُنا فيه ما وَسِعَ من قبلنَا، دونَ تبديعٍ أو تفسيقٍ أو تكفيرٍ؛ إذ جمعُ الأمةِ على قولٍ واحدٍ متعذرٌ حدوثُهُ، ولذلك أبىٰ الإمامُ مالكٌ أن يؤخذ النَّاسُ بما في الموطإِ، وقال للخليفةِ المنصور: "لا تفعل هذا؛ فإنَّ الناسَ قد سبقت إليهم أقاويلُ، وسمِعُوا أحاديثَ وروايات، وأخذَ كلُّ قومٍ منهم بما سبقَ إليهم، وعملُوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم، وإنَّ رَدَّهم عمَّا اعتقدوه شديدٌ، فدعِ النَّاسَ وما هُم عليه"

فإذا كان الاجتهادُ سائغًا لاختلافِ الأفهامِ، فلا يجوزُ التشنيعُ على المجتهدِ بما آل إليهِ اجتهادُهُ وإن خالفَ جمهور العلماءِ، أو ما استقرَّ عليه الرأي في بلدٍ ما، ولو استحلَّ ما ثَبَتَ حُرمتُه بجهلِ دليلِ الحرمة لم يقدح ذلك في علمِهِ ولا تُردُّ به شهادَتُه، ولا يلحقهُ الوعيدُ الذي تنصُّ عليهِ النصوصُ، بل يقالُ: متأوّلٌ معذورٌ.

وقد عَقَدَ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله رسالةً عظيمة القدرِ سماها "رفعُ الملامِ عن الأئمةِ الأعلامِ" لبيان أعذارِ العلماءِ وأسبابِ اختلافِهِم.

فمن ذلك:

(١) عدمُ ثبوتِ النصِّ عندَ الإمام، إما بأنهُ لم يصلهُ، أو وصَلَهُ من طريقٍ ضعيفٍ فردهُ، أو كان عندهُ ما هو أوثقُ منه فتركهُ للأوثقِ.

(٢) أن يكونَ قد فَهِمَ منها خلافَ الراجحِ، فلم يعتقد إرادة تلك المسألةِ بذلكَ النَّص لاحتمالِهِ.

(٣) أن يعتقِدَ أنَّ النصَّ منسوخٌ.

وعلى الجملةِ فكلّ أهلِ مذهبٍ متفقونَ على وجوبِ الأخذِ عن الكتابِ والسنة الصحيحةِ، ولكن تختلفُ الآراءُ لاختلافِ الاعتباراتِ.

ثمَّ إنَّ الاختلاف بعضهُ لفظيٌّ محضٌ، من باب اختلافِ التنوعِ، لكن قصُرَ فهمُ طالبِ العلم عن ذلك، وأمثلةُ ذلك كثيرةٌ.

فيا أيها المتفقهُ:

اعرف حقَّ العالِم، فلا تشغِّب عليه إذا اجتهد بما لم يستقرَّ أهل العلمِ عليه، بل عليكَ بالإنصافِ والعدلِ في الحكم علىٰ أهل الاجتهاد والعلمِ، معتذرًا له إن أخطأ، ملتمسًا للاحتمالاتِ التي أفضت به لهذا الرأي، وإن تبين لك خلافُه فدع عنكَ رأيَهُ ووقِّرْهُ، وعزِّرْهُ وأنزِلهُ منزلتُه.

ودع عنكَ اعتراضَ الجُهَّالِ، فقد علمتَ شأنَ الاختلافِ، بل قُل خيرًا أو اصمت، وقبلَ أن تتهم العالِم اتهم رأيك، وانظر إلىٰ حقيقةِ أمرِكَ، فبنفسكَ انشغل، دونَ التطاول علىٰ العلماءِ؛ فإنهم أعلمُ بمآلاتِ الأمور ومقاصدِ الشريعة، وقد يعرضُ لهم من النظر ما لا تبلُغُه، فتدبر قصة نبي الله موسى والخصر؛ لتعلَم أن الصبر وعدم المبادرةِ إلىٰ الإنكارِ أولىٰ بالمرءِ، واعرف من قصة صُلحِ الحُديبية كيف كانت سببَ الفتح وإن بدا في الظاهرِ أنَّها في غيرِ صالحِ المؤمنين.

فطالبُ العلمِ عليه أن يحرصَ علىٰ أن يستمعَ أكثرَ من أن يقولَ.

قال الحسنُ ﷺ لابنِهِ: يا بنيَّ، إذا جالستَ العلماءَ فكُنْ علىٰ أن تسمعَ أحرص منكَ علىٰ أن تقولَ، وتعلَّم حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمُ حسنَ الصمتِ.

القاعدةُ الخامسةَ عشرةَ:

ثِقْ في أهل العلمِ، فإنَّهم أئِمَّةُ الهُدَى ومصابيحُ الدُّجى

فعلىٰ مدارِ هذهِ القاعدةِ تأدَّب _أيها المتفقهُ_ فإنَّك إنْ تثِق بالعالمِ تحسنُ معاملتَه، وتعرِف قدرَه، وتستنِرْ بعلمِهِ في ظلماتِ الليل الدامسةِ.

وفي زمانٍ يَخلو عن قدواتٍ، من _يا ترى_ ترغبُ في التأسِّي بهم دونَ أهلِ العلمِ؟!

فيا أيها المتفقهُ.

ضَع ثقتَك في أهلِ العلمِ الأمناءِ على شرعِ الله، واعرِف أنَّهُم لن يمتنعوا عن فعلِ خيرٍ إلا رجاءَ خيرٍ أعظمَ، أو خشيةً من وقوعِ شَرٍّ أعظمَ.

وكثيرٌ من الأمورِ قد يكتمها العلماءُ، وتصدُرُ فتواهُم دون حيثياتٍ، لا سيما إذا كان في التحديثِ حصولُ مفسدةٍ أعظَم، وليس هذا من كتمانِ العلمِ المنهيِّ عنهُ، بل لاعتباراتٍ شرعيةٍ.

فاعلم أن امتناع أهل العلم عن الإخبارِ لا يحصلُ إلا من بابِ درءِ المفسدةِ وتحقيقِ المصلحةِ.

ومن ثقتكَ بهم أن تعرفَ أنهم أدرىٰ بمصلحتكَ من نفسِكَ، فلربَّما يشيرُ عليكَ شيخُكُ بكتابٍ، أو بعلمٍ، أو يبدأُ معك بصغارِ المسائلِ فتستخفَّ بها، والعلمُ لا بدَّ لهُ من المرحليةِ، فخُذْ عنهم، فلن تعدَم نفعًا.

قال عبد الله بن عباس رحمه الله: الربانيُّ الذي يربِّي الناسَ بصغارِ العلمِ قبل كبارِهِ.

قال الحافظُ معلقًا: "والمرادُ بصغارِ العلمِ ما وضحَ من مسائلِهِ، وبكبارِهِ ما دقَّ منها. وقيل: يعلمُهُم جزئياتِهِ قبل كلياتِه، أو فروعَه قبل أصولِه، أو مقدماتِه قبل مقاصِدِهِ"

المحاذير

• إياك وحلم اليقظة، ومنه بأن تدَّعي العلم لما لم تعلمه، أو إتقان ما لم تتقن، فإن فَعَلْتَ فهو حجاب كثيف عن العلم.

فما أسرع ما يفتر الإنسان!

أحيانًا بعض الناس يُري الحاضرين بأنه عالم مطلع، فتجده إذا سئل يسكت قليلًا.

يعني كأنه يتأمل، ويطلع على الأسرار، ثم يرفع رأسه، فيقول: هذه مسألة فيها قولان للعلماء، فإما أن يجيب بقول من عنده!! وإلا يقول: تحتاج إلى مراجعة، فالمهم أنك لا تدعي العلم، وتنصب نفسك عالمًا، مفتيًا، وأنت لا علم عندك؛ لأن هذا من السفه بالعقل، والضلال في الدين.

• احذر أن تكون "أبا شبر":

فقد قيل: "العلم ثلاثة أشبار، من دخل في الشبر الأول تكبر، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث علم أنه ما يَعْلَم"

فالأول يتكبر: لأنه ما عرف نفسه وحقيقته.

الثاني: تواضع لكنه متواضع وهو يرى نفسه عالمًا.

الثالث: يرى أنه جاهل لا يعرف، لا يعلم، وبالضرورة لن يتكبر وهو جاهل.

• فإذا فتح الله عليك وكنت عالمًا حقًا، فاعتبر نفسك عالمًا. اجزم في المسألة لا تجعل الإنسان السائل طريح الاحتمال، وإلا ما أفدت الناس، أما من ناحية الإنسان الذي ليس عنده علم متمكن، فهذا ينبغي أن يرى نفسه غير عالم.

•احذر التصدر قبل التأهل

فهو آفة في العلم والعمل، وقد قيل: "من تصدر قبل أوانه، فقد تصدىٰ لهوانه"

فإن تصدر قبل أن يتأهل فهذا دليل على أمور عدة منها:

الإعجاب بالنفس حيث تصدر، فهو يرى نفسه أنه علم الأعلام؛ لأنه تصدر.

موقفك من وهم من سبقك

إذا ظَفِرْت بوهم لعالم؛ فلا تفرح به للحطِّ منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المنصف يكاد يحزم بأنه ما من إمام وله أغلاط وأوهام، لا سيما المكثرين منهم.

وما يشغِّب بهذا، ويفرح به للتنقص، إلا متعالم "يريد أن يُطِبَّ زُكامًا،

فيحدث به جُذامًا".

نعم؛ ينبِّه على خطأ أو وهم وقع لإمام، وغُمِر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرَّهجَ عليه بالتنقص منه والحَطَّ عليه فيغتر به من هو مثله.

•دفع الشبهات

لا تجعل قلبك كالإسفنجة؛ تتشرب ما يَرِدُ عليها، فاجتنب إثارة الشُّبه وإيرادَها على نفسك أو غيرك فالشبه خطَّافة والقلوب ضعيفة، وأكثر من يلقيها حَمَّالةُ الحطب _ المبتدعة_ فتَوَقَّهم.

فهذه وصية شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى.

•احذر اللحن

ابتعد عن اللحن في اللفظ والكَتْب، فإن عدم اللحن جلالة، وصفاء ذوق، ووقوف على ملاح المعاني لسلامة المباني.

فعن عمر ﷺ أنه قال: "تعلموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة".

•الإجهاض الفكري

احذر هذا بإخراج الفكرة قبل نضوجها.

فلا تتعجل حينما يتبين لك الشيء تخرجه.

•الإسرائيليات الجديدة:

احذر الإسرائيليات الجديدة في نفثات المستشرقين من يهود ونصارى وملحدين، فهو أشد نكاية، وأعظم خطرًا من الإسرائيليات القديمة، فإن هذه قد وضح أمرها ببيان النبي الموقف منها ونَشْر العلماء القول فيها، أما الجديدة المتسرّبة إلى الفكر الإسلامي في أعقاب الثورة الحضارية واتصال العالَم بعضه ببعض وكبح المَدِّ الإسلامي، فهي شرٌّ مَحْضٌ وبلاءٌ متدفِّقٌ، وقد أخذت بعضَ المسلمين عنها سِنَةٌ، وخفض الجناح لها آخرون، فاحذر أن تقع فيها، وقىٰ الله المسلمين شرها.

نواقض هذه الحلية

يا أخي! وقانا الله وإياك العثرات_ إن كنت قرأت مُثُلًا من "حلية طالب العلم" وآدابه، وعلمت بعضًا من نواقضها، فاعلم أن من أعظم خوارمها المُفسدة لنظام عِقْدِها:

(١) إفشاءُ السِّرِّ.

(٢) ونقل الكلام من قوم إلى آخرين.

(٣) والصَّلف واللِّسَانة.

(٤) وكثرة المُزاح.

(٥) والدخول في حديث بين اثنين.

(٦) والحقد.

(٧) والحسد.

(٨) وسوء الظن.

(٩) ومجالسة المبتدعة.

(١٠) ونقل الخطىٰ إلىٰ المحارم.

فاحذر هذه الآثامَ وأخواتِهَا، واقْصِرْ خطاك عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فعلت؛ وإلا فاعلم أنك رقيق الديانة، خفيف لَعَّاب، مغتاب، نمَّام، فأنَّى لك أن تكون طَالبَ علم، يشار إليك بالبنان، منعَّمًا بالعلم والعمل.

الخاتمة

سدد الله الخطىٰ، ومنح الجميع التقوىٰ وحسن العاقبة في الآخرة والأولىٰ.

ورزقنا الله وإياكم الإخلاص والقبول.

وصلىٰ الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله وفضله.

٥ ربيع الأول ١٤٤٠هـ

الفهرس	
• تقديم المعلمة جيهان شوقي	٤
• مقدمة الكاتبة	٥
• فضل العلم	٧
• الإسلام دين العلم والتعلم	٨
• أخي المتفقه في الدين..	٩
• أدلة فضل العلم	١١
• تقسيم الناس في الدنيا	١٣
• آداب طالب العلم	٢٥
•أوصاف طُلاب العلم الذين نفعهم الله بالعلم في الدنيا والآخرة	٢٧
(١) آداب طالب العلم في نفسه	٢٨
• العلم عبادة	٢٨
• كيف يكون الإخلاص في طلب العلم؟!	٣٠
(٢) كن على جادة السلف الصالحين	٣٦
(٣) ملازمة خشية الله تعالى	٣٧
(٤) دوام المراقبة	٣٨
(٥) خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء	٣٩
(٦) القناعة والزهد	٤٠

(٧) الرضا باليسير من القوت والصبر على ضيق العيش	٤١
(٨) تحلَّ بالمروءة	٤٢
(٩) التمتع بخصال الرجولة	٤٣
(١٠) هجر الترفه	٤٨
(١١) الإعراض عن مجالس اللغو	٥١
(١٢) التحلي بالرفق	٥٣
(١٣) التأمل	٥٤
(١٤) الثبات والتثبيت	٥٤
(١٥) التواضع للعلماء	٥٥
(١٦) صفة طالب العلم في مشيه إلى العلماء	٥٧
(١٧) صفة مجالسته للعلماء	٥٨
(١٨) أداء حقوق معلمك عليك	٥٩
(١٩) التحلي بآداب مجالس العلم	٦٠
(٢٠) آداب سؤال المعلم	٦١
(٢١) عدم التسويف واغتنام الوقت	٦٢
(٢٢) صفته إذا عرف بالعلم	٦٣
(٢٣) صفة مناظرته إذا احتاج إلى مناظرة	٦٧
(٢٤) أخلاقه ومعاشرته لسائر الخلق	٧٢

(٢٥) أخلاقه فيما بينه وبين ربه	٧٣
(٢٦) سؤال الله لأهل العلم	٧٦
" كيفية الطلب والتلقي "	٧٨
(٢٧) كيفية الطلب ومراتبه	٧٨
(٢٨) تلقي العلم عن الأشياخ	٨١
(٢٩) رعاية حرمة الشيخ	٨٢
(٣٠) رأس مالك أيها الطالب من مُعلمك	٨٨
(٣١) نشاط الشيخ في درسه	٨٩
(٣٢) الكتابة عن الشيخ حال الدَّرس والمذاكرة	٩٠
(٣٣) التلقي عن المبتدع	٩١
(٣٤) أدب الزمالة	٩٥
باب: أخلاق العالِم الجاهل المُفتتن بعلمه	٩٩
• صفته في طلبه للعلم	١٠٢
• صفة من لم ينفعهم الله بالعلم	١٠٦
• باب: قواعد في التعامل مع العلماء	١١٠
• موالاة العلماء ومحبتهم	١١٠
• احترام العلماء وتقديرهم	١١٥
• السعي إلى العلماء والرحلة إليهم	١١٦

• الصبر على العلماء وشدتهم أحيانًا	١١٧
• رعاية مراتب العلماء	١١٩
• أن تراعي تخصصه	١١٩
• أن تراعي عُمره وسِنُّه	١٢٠
• حذارِ القدح في العلماء	١٢١
• احذر من تخطئة العلماء بدون علم	١٢٤
• التمس للعالم العذر	١٢٧
• الرجوع إلى العلماء وقت الفتن	١٣١
• ليس أحد إلا وتُكُلم فيه، فتثبت	١٣٣
• من نفيس كلام ابن القيم	١٣٥
• احذر زلات العلماء	١٣٧
• كلام الأقران يُطوى ولا يُروى	١٤٠
• العدل والإنصاف	١٤٤
• ثق في أهل العلم	١٤٧
المحاذير	١٤٩
احذر أن تكون أبا شبر!	١٤٩
احذر التصدر قبل التأهل	١٥٠
موقفك من وهم من سبقك	١٥٠

دفع الشبهات	١٥١
احذر اللحن	١٥١
الإجهاض الفكري	١٥٢
الإسرائيليات الجديدة	١٥٢
نواقض هذه الحلية	١٥٣
خاتمة الكاتبة	١٥٤